نيبو

الطبعة الأولى

إصدارات ميثاق
رقم الإيداع : 26397 /2023
الترقيم الدولي : 978-977-87018-5-2

الكاتب: هشام البراوي
عنوان الكتاب: نيبو
الإخراج الفني: عبد العليم أحمد منا

الناشر: ميثاق للنشر والتوزيع
إيميل: mesaak10@gmail.com
الهاتف: 01143487669
فيسبوك: mesaak0

رئيس مجلس الإدارة: محمود البحيري

جميع الحقوق محفوظة © لا يسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقيا أو إلكترونيا أو أية وسائط أخرى، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. تستثنى منه الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

نيبو

(واقع تعكسه مرآة الخيال)

رواية

هشام البراوي

للنشر والتوزيع

مدينة هيكاريا «العاصمة»

ولاية «نيبو» 1980

بخُطوات متباطئة يسير ذاك الشاب بصحبة زوجته في أحد شوارع مدينة هيكاريا المزدحم بالمارة والسيارات، والعربات التي تجرها الحمير والبغال، وسط الأجواء التي يسودها الغبار وعوادم السيارات، تتعثر أقدامهما بالحجارة وأكياس القمامة والطين الناتج عن طفح آبار الصرف بالشوارع الترابية. يرتديان ملابسهما القديمة غير المهندمة، تتجول أعينهما بين المارة، وكأنهما يشاهدان البشر للمرة الأولى، لا يتحدثان، بل ينظران فقط إلى ما ومَن حولهما بنظرات تملؤها الدهشة والحَيرة.

تمسك الزوجة بيد زوجها ناظرة إلى عينيه، وتحاول طمأنته بعض الشيء ليتوقف الشاب فجأة أمام أحد المحال التجارية، ثم دخل إليه مسرعًا ناظرًا إلى التلفاز الموضوع على طاولة صغيرة بدهشة، ويُلامسه بيده، وكأنه يحاول أن يمسك بمَن يراهم عبر شاشته؛ بينما تحاول زوجته جذبه للخارج لينهره أحد العاملين طاردًا إياه وزوجته؛ ليُكملا سيرهما في شوارع المدينة.

بعد ساعات من السير دون هدف أو جدوى دخلا إلى إحدى البنايات المهجورة؛ ليبيتا ليلتهما فيها حتى الصباح.

مع شروق الشمس، خرج الشاب وزوجته إلى شوارع المدينة مرة أخرى، ليلاحظا أن أهلها يتبادلون الحديث باللغة الفرنسية الممتزجة بالقليل من الكلمات التركية والعربية، كما أن غالبية اللافتات المُعلقة على بوابات المحال التجارية ولوحات الدعاية التي تمتلئ بها أعمدة الإنارة بصورة عشوائية كُتبت أيضًا باللغة الفرنسية.

دلف إلى أحد المحال التجارية قائلًا:

- نحن غريبان بلا عمل أو مأوى، هل تستطيع أن توفر لنا عملًا؟

- لا يا بني، للأسف.

أكمل سيره وزوجته طارقين أبواب المحال التجارية؛ سائلين عن عمل ليستطيعا توفير قوت يومهما، ولكن دون جدوى إلا بعض المحال التي سألهما أصحابُها عن بطاقتى هُويتهما، ليُخبراهم بأنهما لا يحملان أي أوراق أو مستندات تثبت هُويتهما، فيكون الرد الملائم لهما بأنهما لا يستطيعان العمل وهما مجهولا الهُوية.

رمقت الزوجة بنظرها بعض الرجال الجالسين على أحد الأرصفة، واضعين بجوارهم بعض أدوات التكسير والحفر، لتمسك بيده قائلة: اذهب واجلس بجوار هؤلاء، فهم ينتظرون مَن يوفر لهم عملًا.

نظر إليها زوجها متسائلًا: هل ستأتي معي؟

- لا، هو عمل للرجال.
- ولكن، كيف سنلتقي ثانية؟
- سأنتظرك بجوار هذه المدرسة، ثم أوقفت أحد المارة سائلةً إياه:

ما اسم هذا الشارع؟

ليجيبها: شارع السلام.

- شكرًا لك.

نظرت لزوجها قائلة: شارع السلام بجوار مدرسة هيكاريا العليا، إن رزقك الله عملًا ستعود لتجدني في انتظارك، بجوار بوابة المدرسة.
جلس بجوار الرجال على الرصيف، وجلست على الرصيف المقابل بجوار المدرسة، وما هي إلا دقائق معدودة حتى أتت إحدى سيارات النقل، ليهرول الرجال تجاهها، بينما وقف الشاب بعيدًا، ثم تحرك تجاه السيارة على استحياء، ليشير له السائق ليركب، واختار معه بعض الرجال.
ثبّت عينيه تجاه زوجته التي تجلس على الرصيف بجوار المدرسة ناظرة إليه بعينين دامعتين مُحاولة إخفاء دموعها بابتسامةِ سعادة زائفة.
وصلت السيارة إلى موقع العمل بعد نحو نصف الساعة لينزل برفقة الرجال، وقد اتجه إليهم السائق قائلًا:
اسمي «يامن بن الراعي»، مقاول أنفار، المطلوب هو نقل هذه الرمال والأسمنت إلى الدور الخامس بتلك البناية، إن أحسنتم العمل ستكونون رجالي، وسأستعين بكم في الكثير من الأعمال القادمة.
انطلق برفقة الرجال للعمل، وما هي إلا ساعات قليلة حتى انتهوا من نقل الرمال والأسمنت، ثم اتجهوا للمقاول للحصول على أجورهم ليقف في الطابور متقاضيًا أجره الزهيد ليسأله المقاول عن اسمه، صمت برهة ثم قال: كامل.. اسمي كامل بن عبد الله.

- حسنًا يا كامل، انتظرني غدًا أمام بوابة مدينة الزهور في السابعة صباحًا.
فأومأ برأسه أن اتفقنا، ثم توقف ليسأله:

- كيف أذهب إلى مدينة الزهور؟

- هل أنت غريب؟
- نعم، غريب.
- من نهاية شارع السلام الذي كنت تجلس فيه، ستجد الكثير من سيارات الأجرة الذاهبة إلى هناك.
- شكرًا سيدي.

لحق بأحد زملائه من العمال سائلًا إياه: كيف أصل إلى شارع السلام؟

- تعالَ معي.

رافق زميله ليُرشده إلى موقف السيارات ليستقل إحدى سيارات الأجرة عائدًا إلى زوجته التي وجدها في انتظاره، جالسة أمام بوابة المدرسة، يتساقط رأسها من شدة النعاس، والإرهاق، والجوع، وعندما رأته نهضت مبتسمة، فاحتضنها باسمًا مُتجهَين لأحد المطاعم ليملآ معدتهما الخاوية، ثم سارا مُترجلين إلى تلك البناية المهجورة ليبيتا ليلتهما بعد أن قص لها كيف مر يوم عمله، وأنه أصبح أحد رجال السيد «يامن»، والذي سيلقاه صباح غدٍ في يوم عمل جديد.

فتنظر له قائلة: غدًا وبعد أن تذهب لعملك سأقضي يومي في البحث عن عمل.

ضمها إلى صدره، ثم نظر إليها دامع العينين قائلًا:

- أعتذر لكِ حبيبتي عن كل ما حدث، لا أستطيع الآن أن أعِدك بشيء، إلا أنني سأبذل ما في وسعي لنبقى معًا إلى آخر العمر.
- حبيبي أعلم أن ما حدث ليس بيدك، هو قدرنا، ويكفيني البقاء بجوارك، فهذا هو كل ما أريد في هذه الدنيا.

مع شروق شمس اليوم التالي استيقظ الشاب وزوجته، ثم اتجه إلى مدينة الزهور لتبدأ الزوجة رحلة البحث عن عمل.

مرت بضعة أيام على الحال نفسها، ومع فشل الزوجة في أن تجد عملًا قررا شراء موقد كيروسين والقليل من أدوات الطبخ؛ لتقف بإحدى الأسواق لبيع بعض الطعام للمارة، ومع استطاعتهما توفير القليل من المال بعد بضعة أشهر استأجرا غرفة تلائم ما يربحانه من مال، بمنطقة نائية بجوار المقابر، بالعاصمة هيكاريا.

في أحد الأيام عاد من عمله مبكرًا، قائلًا لزوجته:

- لقد أكملت ثمن الكتاب.

ترتسم ابتسامة خفيفة على وجهها قائلة:

- إذًا، لنذهب حالًا لشرائه.

أغلقت باب الغرفة سائرة بجوار زوجها مُتجهين لإحدى المكتبات، ثم بعد عودتهما للغرفة جلسا متجاورين محدقين بصفحاته، كانت سمات الحزن تكسو ملامح وجهيهما في أثناء قراءته، يحاول الزوج حبس دموعه، بينما تنهمر دموع زوجته على وجنتيها، غلب الزوجَ النعاسُ ليدير ظهره دون أن يتفوه بكلمة داخلًا في سبات عميق.

بينما ظلت دموع زوجته تتساقط كقطرات الندى على كلمات الصفحات المتتالية.

كان يعود من عمله كل ليلة في ساعة متأخرة، راسمًا على شفتيه ابتسامة، زائفة ليهوِّن على حبيبته ما تعانيه في أثناء عملها صباحًا، كما كانت لا تملك إلا النظرات والابتسامات، وبعض الكلمات الحنونة واللمسات الدافئة لجعل لقاءهما كل ليلة كأول لقاء يجمع بين حبيبين، يملأ قلبيهما الشوق واللهفة.

بعد مرور بضعة أشهر وقفت الزوجة كما اعتادت في مكانها بالسوق تبيع بعض الأطعمة زهيدة الثمن للمارة، لتسقط على الأرض فاقدة الوعي، بعد شعورها بألم شديد، تجمّع حولها بعض البائعين والمارة، حاملين جسدها

الهزيل على أذرعهم إلى أحد المستوصفات الطبية القريبة من السوق، الذي كان يتسم بقلة الأسِرَّة وندرة الأطباء والزحام الشديد من المرضى على أبوابه، وبعد نحو الساعة نجحوا في إدخالها غرفة الكشف بعد أن جمعوا رسومه من بعضهم بعضًا لتحصل على بعض المُسكنات، ويطلب منهم الطبيب بعض الأشعة والتحاليل.

خرجت من باب المستوصف بالكاد تستطيع الوقوف على قدميها، لتصل مُترجلة إلى غرفتها داخلة في سبات عميق، عاد الزوج من عمله ليجدها مستلقية على الفراش في حالة إعياء شديد، هرول إليها متسائلًا:

- ما الأمر؟ هل تعانين من شيء؟

- لا، شعرت ببعض الإجهاد، فقررت أن أستريح اليوم لأستطيع العمل غدًا.

- لا عمل غدًا، أنتِ في حاجة لأخذ قسط من الراحة، أحضرتُ طعامًا شهيًا اليوم، انهضي لنأكل.

حاولت الجلوس من رقدتها، فلم تستطع ليشعر الزوج بأن الأمر يبدو وكأنه ليس بالهيِّن، مد يده إليها لتستند إلى ذراعه جالسة لتأكل القليل من الطعام، ثم نهض وحملها على ذراعيه خارجًا من الغرفة، مُترجلًا مسرعًا في خُطواته إلى أحد المستشفيات الحكومية، الذي بالطبع رفض قبولها لأنها وزوجها لا يملكان بطاقة هُوية، ليكمل مسيرته طارقًا أبواب العيادات الخاصة، والتي رفضت استقبالها، لأنه لا يملك ما يكفي من المال، لدفع أجر الطبيب.

نمى إلى مسامعه في أثناء خروجه من باب إحدى العيادات حاملًا زوجته بين ذارعيه صوتُ إحدى الممرضات تناديه:

- يا سيدي.

التفت إليها مسرعًا،

- هل تناديننى؟

- نعم، الطبيب في انتظاركما.

يبدو أن أحد الأطباء قد رق قلبه لحالهما. فقرر أن يفحص حالتها، ويأمر بإجراء التحاليل والأشعة المطلوبة دون مقابل.

وصل إلى غرفته حاملًا زوجته بين ذراعيه، لترقد على فراشها، وتدخل في سباتها بعد تناولها الأدوية المجانية التي أعطاها لها الطبيب.

لم يكن أمامه إلا انتظار يومين حتى تظهر نتيجة الفحوص التي تمت، كما لم يكن بمقدوره أن يتغيب عن عمله، حتى يستطيع أن يوفر قوت يومه له ولزوجته.

مرَّ اليومان لتزيد مأساته عندما أخبره الطبيب بأنها مصابه بفشل بكلتا كليتيها، وتحتاج لغسل كلوي في أسرع وقت، وجلسة أسبوعيًا بتكلفة 2500 لورين، حيث إن «اللورين» هو العملة الرسمية لولاية نيبو.

خرج الشاب من عيادة الطبيب لا يعلم بماذا سيُجيب عن تساؤلات زوجته عند عودته ليجلس على أحد المقاهي الذي اعتاد أن يجلس به مع زملاء عمله، انتظارًا للسيارة التي ستنقلهم إلى موقع العمل، أو أحد المقاولين الباحثين عن عمال اليومية، فوجد أحد زملائه جالسًا ليجلس بجواره:

- أهلًا كامل.
- أهلًا علي.
- ماذا بك؟ تحملُ هموم الدنيا على وجهك!
- زوجتي مريضة، وتحتاج لغسل كلوي مرة أسبوعيًا وتكلفة المرة الواحدة 2500 لورين، ولا أدري كيف سأُدبر هذا المبلغ؟

- عليك بالدعاء وثِق أن الله لم يكتب لك إلا الخير، حاول أن تبحث عن عمل إضافي.
- وهل لدينا وقتٌ لعمل إضافي؟ نذهب للعمل بعد الفجر لنعود بعد الغروب.

- عندي طريقة أخرج بها من همومي عندما لا أجد لها حلًا.
- أسرع بإخباري بتلك الطريقة
- تعالَ معي؟

اصطحب عليّ صديقه إلى أحد الأماكن الهادئة، ثم أخرج من جيبه لفافة من التبغ، ثم أشعلها واستنشق منها بعض الأنفاس، ثم ناولها لكامل فلم يمسك بها قائلًا:

- يا علي أنا لا أدخن.
- هذه سيجارة حشيش
- وما الحشيش؟
- هههههه، لا تعلم ما الحشيش؟
- والله لا أعلم.
- هو نوعٌ من المخدرات يُخرجك من الواقع إلى عالم الخيال.
- وهل هذا قانوني؟
- بالطبع لا.

ارتسمت على وجه كامل ابتسامة خفيفة، ثم نظر له قائلًا:

- سأصحبك إلى مكان آمن حتى لا نقضي ما تبقى لنا في هذه الدنيا خلف أسوار السجون.

مشى الصديقان حتى وصلا إلى موقف لسيارات الأجرة؛ ليستقلا سيارة باتجاه مقاطعة ياسوئيل، ثم اتجها إلى التلال المُرتفعة خلف المعبد ليدخلا أحد الكهوف، حيث توجد غرفة في نهاية ممر حجري بجوار إحدى الآبار والذي يختفي خلف وثن عملاق يَعُدُّه الكثير من أهل نيبو إلهًا مقدسًا، حيث جلسا مستندين بظهريهما إلى البئر، إذ كان كامل وزوجته يجلسان في

المكان نفسه على فترات كلما ضاق بهما الحال.
ثم أخرج عليّ من جيبه لفافة التبغ التي كان قد أطفأها قبيل التحرك في اتجاه هذا المكان البعيد عن أعين البشر، فأشعلها ليُشارك صديقه الأنفاس التي تطمس هموم العقول والقلوب، ويسدل الدخان الكثيف والظلام الممدود على أعينهم ستار الحجب عن كل ما لا تريد العيون رؤيته.
عاد الشاب إلى غرفته، حيث ترقد زوجته على فراشها، وما إن رأته حتى أخفت بعض الأوراق تحت ملاءة فراشها، فجلس بجوارها مُتظاهرًا بأنه لم يلحظ ما فعلت، واحتضنها بين ذراعيه بعد أن وضع أمامها بعض الطعام، فنظرت إليه متسائلة:

- ماذا قال لك الطبيب؟

- قال إن كل شيء على ما يُرام، أنتِ فقط بحاجة إلى الغذاء والراحة.

لم تقتنع بما قال وبدآ في تناول الطعام في صمت ثم تناولت بعض الأدوية، ثم دخلت في سباتها.
ما إن تأكد من نومها حتى أخرج تلك الأوراق التي كانت قد أخفتها، ثم قام بفتحها ليجدها مليئة بالجداول والأرقام التي لم يفهمها، فقام بطي الأوراق ووضعها في مكانها، كان كل ما يجول برأسه هو كيفية تدبير تكلفة الغسل الكلوي.
تتوالى الأيام، وهو يعمل ليل نهار بعد أن يطمئن أنه قد وفر لها ما يكفيها من طعام ودواء بالغرفة، وكانت بالطبع حالتها تزداد سوءًا يومًا بعد يوم، وكان يقضي أوقات فراغه المحدودة إما بجوارها يتحدث إليها محاولًا تخفيف ما تعانيه من آلام، وإما بجوار البئر خلف التلال محاولًا نسيان تلك الآلام.
عاد من عمله ذات ليلة فوجدها في حالة إعياء شديد، هرول تجاهها مُحاولًا حملها بين ذراعيه، إلا أنها منعته قائلة:

- لا وقت لدينا، ابق بجواري لتكون صورتك آخر ما ستراه عيناي في هذه الدنيا.

- لن أذهب بكِ إلى أي مستشفى أو عيادة، بل سنذهب حيث أتينا، سنحاول إيجاد علاج لكِ، ألم تخبريني بأن لديكم من العلم والتقدم ما يكفي؟

مدت يدها مُظهرة تلك الأوراق التي كانت تخفيها تحت الملاءة لتضعها في يده قائلة:

- حاولت أن أفعل ذلك ولكن..

ثم صمتت صمتها الأبدي لتسلم روحَها بين ذراعيه.

لم يجد كامل صعوبة في دفنها، فهو يسكن بجوار المقابر، وما إن انتهى من دفنها حتى أتى بحجر متوسط الحجم ليضعه فوق قبرها وقد نقش عليه بعض الكلمات، ثم مشى في شوارع المدينة على كتفه حقيبة جلدية تحوي ذلك الكتاب الذي يطوي بداخله تلك الأوراق التي كانت تخفيها، ثم وضعتها في يده قبل وفاتها والذي لا تزال تخفي أوراقه آثار دموعها في أثناء قراءته، تكاد تنعكس أضواء السيارات والمحال التجارية ولافتات الدعاية المُضيئة في تلك الدموع التي تغمر عينيه لتأخذه قدماه إلى موقف سيارات الأجرة ليستقل إحداها مُتوجهًا إلى مقاطعة ياسوئيل حيث البئر.

جلس على حافة البئر وهو يُدخن سيجارته المحشوة بمخدر الحشيش، ناظرًا إلى الظلام الممدود أمامه بتلك الغرفة الحجرية التي طالما وجد فيها راحته النفسية والبدنية، حيث ينسى هموم أيامه التي لا تختلف كثيرًا عن هذا الظلام الممدود.

بدأ المخدرُ تأثيره في أطرافه وعقله وعينيه، وبدأت تدور حوله الدنيا، ويدور حول نفسه عكس حركة دوران الدنيا أمام ناظريه، ليشعر فجأة بسيولة المياه تغمر جسده، وتزداد الظلمات ظلامًا، ولا يستطيع أن يُمرر

الهواء إلى رئتيه.
نعم.. سقط في البئر، لتبدأ يداه وقدماه في ضرب المياه التي تُحيطه بصورة عشوائية؛ بحثًا عن نسمة هواء تملأ رئتيه؛ فتعيد له الحياة التي بدأت في نهايتها.

تزداد ضربات يديه وقدميه وقلبه بصورة هيستيرية، ليخاطب قلبُه عقلَه سائلًا وهو يهوي إلى قاع البئر:
- هل هذه هي النهاية؟ هل سينتهي عذابُ الدنيا في تلك اللحظات ليبدأ عذاب الآخرة؟، نعم، فأنا أموت تحت تأثير مخدر الحشيش لألقى ربى يوم بعثي في حالة سُكْر.. هل هذا ما أستحقُّ بعد كل ما عانيته في هذه الدنيا رغم صغر سني؟
ثم تبدأ أطرافه في السكون، وتُغلق عيناه ليزداد الظلام ظلامًا.. فها هو يسقط ببُطء إلى قاع البئر التي طالما كانت الملاذ من هموم الدنيا وعنائها.
وها هو يهوي بهدوء، يكاد جسده يُلامس قاع البئر بعد أن سكن تمامًا عن أي حركة.
ثم فُتحت عيناه فجأة ليبدأ مرة أخرى في ضرب الماء من حوله بكلتا يديه وقدميه، وتدب في جسده قوة لا يعرف مصدرها، ويتحرك وهو لا يعلم: هل في اتجاه النجاة أو في اتجاه القاع؟ ها هو يشعر بنسيم الهواء الذي كان حلمًا وأملًا ينشده، وها هو على سطح المياه داخل البئر.
لكن، هناك أمرٌ غريب.. فهذا هو ضوء الشمس يُضيء البئر ويملؤها نورًا.. أين ذهب الظلام؟

القاهرة

يناير 1914م

وقف عم صالح أمام إحدى السيارات بمنطقة العباسية بالقاهرة مُمسكًا بقطعة من القماش لإزالة بعض الأتربة التي تغطيها، مُنتظرًا مغادرة عابد بك شاهين أحد أكبر تجار ومُصدِّري القطن بالمحروسة وأحد المقربين من بلاط الخديو عباس حلمي الثاني لمكتبه الكائن بإحدى البنايات بالعباسية، وما إن ظهر خارجًا من بابها حتى أسرع في خطواته فاتحًا له باب السيارة لتسير في اتجاه فيلته الكائنة بحي الزمالك، وما إن وصل حتى فتح له أحمد الخادم بابها.

- مساء الخير يا أحمد، إيه الأخبار، كله تمام؟
- تمام يا بيه، الطباخين قربوا يخلصوا والسفرجية جاهزين.
- عفارم، مش عاوز أي أخطاء النهارده، هيبقى في وزراء وأعيان وباشوات وبكوات.
- ما يكونش عندك فكر يا بيه، دى مش أول حفلة.
- الهانم فين؟
- فوق يا بيه.
- وسالم فين؟
- خرج من ساعتين ولسه ما وصلش.
- تمام، خليهم يحضرولي الحمام بسرعة، آه صحيح جهزت مكان التخت؟ النهارده جاي الشيخ صالح عبد الحي ومنيرة المهدية.
- كله جاهز يا بيه، ما يكونش عندك فكر.

صعد عابد بك درج السلم ليفتح باب غرفته واجدًا زوجته تتزين أمام

المرآة.

- مساء الخير يا صفية.
- أهلا يا عابد.
- سالم فين؟
- راح يعزم زمايله إللي ما يعرفوش.
- هيوحشني الولد والله يا صفية، لكن مستقبله أهم من أي شيء، دراسته في إسطنبول ووجوده جنب السلطان هيعود عليه وعلينا كلنا بمنافع كبيرة.
- والعروسة يا عابد ما تنساش.
- آاااه العروسة، يا رب بس تعجبه، حَكِم ابنك دا ما يعجبوش العجب.
- ما تقلقش، هتعجبه، هيلاقي فين أفضل من أميرة من بني عثمان؟
- إنتي عارفة ابنك، يسيب الأميرة ويبص لخدامة.
- عابد... دا موضوع وانتهى.
- يا رب يخيب ظني ويفلح المرة دي.
- هيفلح، ما تقلقش.
- ما أظنش، دا قعد ثلاث سنين يسقط في التوجيهية، وثلاث سنين في فرنسا وإحنا فاكرينه بيدرس الحقوق وفي الآخر طلع بيصرف فلوسي على الستات، عمومًا ربنا يهديه.

وصل سالم بصحبة رفاقه وبدل عابد بك ملابسه وأكملت صفية هانم زينتها ليستقبلوا الضيوف من الباشوات والبكوات والأعيان، ثم جلسوا يستمعون لوصلات الغناء من الشيخ صالح عبد الحي والمطربة الشابة منيرة المهدية

إسطنبول
يناير 1914م

بعد أيام قليلة احتضن سالم والدته مودعًا ثم قبَّل يد والده قائلًا:

- أنا عارف يا والدي إني خذلتك كتير، لكن وعد إني هرجع وحضرتك فخور بابنك، ليقبله والده على جبينه، ثم غادر أرض الوطن على متن إحدى البواخر المتجهة لإسطنبول، آخذًا قراره بأن ينسى ذاك الشاب الطائش الذي طالما كان سببًا للمتاعب وبعض الكوارث لوالديه، وما إن وصل حتى وجد في استقباله سنان بك، صديق والده ووالد خطيبته المستقبلية ليتجها إلى منزله بأحد الأحياء الراقية بمدينة إسطنبول، ويتم التعارف على زوجته ونجله ونجلته سيرين، والتي كان جمالها كافيًا للفت انتباهه، ثم اتجها بعد ضيافته إلى شقة مجاورة له كان قد استأجرها، وأعدها لإقامته.

كان إتقان سالم التركية والفرنسية والإنجليزية عاملًا مساعدًا على سرعة تأقلمه في المجتمع التركي، كما كانت علاقته بصديق والده سنان بك أيضًا سبيلًا لتكوين العلاقات والصداقات في المجتمع التركي، وتسهيل العديد من الإجراءات لالتحاقه بإحدى المدارس العليا في العاصمة العثمانية والتي كانت ستؤهله للعمل كضابط بحري بالأسطول العثماني.

بدأ سالم دراسته في فبراير 1914م وكانت تلك الفترة هي بداية سيطرة حزب الاتحاد والترقي على مقاليد الأمور، والاتجاه إلى القومية التركية مما أدى إلى اتجاه الحكومة وقتها إلى تتريك الدولة بمنح المناصب القيادية للأتراك فقط، وساعد هذا التوجه القوميات المختلفة في الدولة العثمانية على النهوض للمناداة بالاستقلال عن الكيان التركي الجديد، وظهرت أشكال

جديدة من المعارضة التي كانت تنادي باللا مركزية بمعنى إعطاء الولايات الحق في إدارة أمورها بعيدًا عن الحكومة التركية، وأسسوا حزبًا باسم «جمعية الحرية والائتلاف» وعرف أعضاؤه باسم الائتلافيين وكانت تكثر التظاهرات والاحتجاجات وبالتالي تزداد الاعتقالات للائتلافيين ومؤيديهم.
لم يكن لسالم بالطبع أي توجهات سياسية، ولكنه كان على دراية بما يحدث حوله، وكانت صداقاته متنوعة دون تمييز أو تفرقة بين التوجهات المختلفة، وكان دائمًا ما تجمعه العديد من النقاشات بالائتلافيين والاتحاديين وغيرهم حتى زاره ذات يوم سنان بك في شقته؛ ليحذره من عواقب صداقته لبعض أعضاء جمعية الحرية والائتلاف.

لم يُعر سالم تلك التحذيرات اهتمامًا إذ كانت علاقات والده بالخديو في مصر وعلاقاته ببعض الباشوات في البلاط العثماني مدعاة لبعث الطمأنينة في قلبه إن حدث أي شيء لا يتوقعه.. وقد حدث.

إذ رأى أحد أصدقائه المقربين وقد انضم لإحدى التظاهرات الحاشدة في أثناء خروجه من مدرسته، لتتلاحم مع بعض المسيرات بشوارع العاصمة التركية، فحاول الوصول إليه بين الزحام والتدافع كمَن يسبح ضد تيار جارف ليُثنيه عن المشاركة خوفًا عليه من أن يصبه مكروه، حتى نمت إلى مسامعه أصواتُ بعض الأعيرة النارية ليسود الهرج ويهرول المتظاهرون بصورة عشوائيَّة، ليتفاجأ بأن عنقه تعتصرها إحدى السواعد الفتية، والتي تحتضن رأسه وتجره كالبهيمة إلى إحدى العربات ذات الأسوار الحديدية الممتلئة بمَن تم اعتقالهم.

فُتحت السلاسل والأقفال وقُذف به داخل العربة، ثم أُغلقت أبوابها لتجرها الخيول إلى المجهول وسط نظرات المارة التي تسودها الشفقة من البعض، والكراهية من الآخرين، واللا مبالاة من الكثيرين.
وصلت العربات الممتلئة إلى إحدى البنايات ذات الأسوار الحجرية

المرتفعة، والأبواب الخشبية المغلقة والتي سرعان ما فتحت أبوابها فور اقتراب العربات منها، توقفت الخيول بفناء سجن «يدي قله» وتعني الأبراج السبعة، وهو إحدى القلاع البيزنطية التي استخدمت كمحبس في العهد العثماني على بحر مرمرة بمدينة إسطنبول، فتحت السلاسل والأقفال لتنهال عليهم ضربات العصي والسياط، حيث لا صوت يعلو فوق صوت الأنين والآهات والصراخ والسباب وقرع السياط والعصي على أجسادهم، بما لا يدع مجالًا لسالم لبدء أي حديث أو نقاش أو محاولة إيضاح هُويته لهم، لينتهي به الأمر في إحدى الزنازين ذات الجدران الحجرية الرمادية التي تغطيها الكلمات والأرقام والرسوم وبعض آيات القرآن وصور الصلبان وحروف وكلمات بلغات مختلفة، يفترش أرضيتها أناس ذوو وجوه عابسة ينبعث منهم مزيج من الروائح الكريهة.

أدار وجهه ممسكًا بيديه قضبان النافذة الحديدية لباب الزنزانة صارخًا:

- أنا سالم، ابن عابد بك شاهين، أريد التحدث إلى أحد الضباط، أرسلوا إلى سنان بك، هو أحد رجال السلطان محمد الخامس، لا علاقة لي بأي شيء.

ظل يصرخ حتى ربت على كتفه أحدهم قائلًا:

- هوِّن عليك يا بني، لن يستمع لك أحد، اطمئن فبالتأكيد سيسأل عنك سنان بك أو والدك عندما يشعران بغيابك، هدأ قليلًا ليمسك الرجل بذراعه حتى جلس بجواره صامتًا جائلًا بنظره بين وجوه المعتقلين والأحجار التي بنيت منها تلك الجدران، والتي يبدو أن أرواحًا معذبةً تسكنها تبث روح الكآبة والحزن على الجميع، ليبيت فيها ليلته الأولى التي لم تختلف كثيرًا عن الليالي التي تلتها.

يجلس أصلان بك على مكتبه بأحد مراكز الشرطة بإسطنبول ليطرق الباب ويدخل أحد الجنود قائلًا:

- أصلان بك، سنان بك بالخارج يستأذن بالدخول.
- فليتفضل، أهلًا سنان بك.
- كيف حالك سيد أصلان؟
- الحمد لله، كيف حالك وعائلتك؟
- بخير لله الحمد.
- ما سر تلك الزيارة؟ بالتأكيد لم تأتِ للسؤال عني.
- أعلم مشاغلك الكثيرة أصلان بك، وأعلم أني مُقصر.
- تفضل سيد سنان، ما الأمر؟
- ابن صديق لي جاء من مصر للدراسة منذ شهرين تقريبًا، ويبدو أنه قبض عليه خطأ في أثناء التظاهرات الأخيرة.
- ما اسمه؟
- سالم عابد شاهين، ابن عابد بك شاهين، أحد أعيان القاهرة وعلى علاقة وطيدة بخديوي مصر وبلاط السلطان.
- أعِدك سنان بك أني سأفعل ما بوسعي، ولكن يجب أن تعلم أن الأمر حساس جدًا، خاصة فيما يتعلق بالائتلافيين.
- أعلم أصلان بك، ولكن ثِق أنه قُبض عليه خطأ.
- سأبذل جهدي.
- شكرًا سيد أصلان.
- عفوًا سنان بك، تحياتي للأسرة الكريمة.

خرج سنان بك ترتسم على وجهه ملامح التشاؤم والقلق مما قاله أصلان، شاعرًا أنها وعود زائفة ليتجه إلى أحد صناديق البريد ليرسل خطابًا كان قد كتبه إلى عابد بك في مصر، يُخبره بما حدث لسالم، بَيد أن الخطاب سيصل إلى القاهرة في غضون شهرين أو أكثر.

سجن «يدي قله»
إبريل 1914م

جلس سالم برفقة زملاء الزنزانة «هاكوب وهو أرميني ينتمي لجمعية الحرية والائتلاف، وكارول من صربيا، وعدنان من البوسنة، وقاسم وكمال الدين وعبد الله ومحمود وبنيامين وسليمان، وهم أتراك» وكانوا جميعًا ينتمون لجمعية الحرية والائتلاف.
كان سالم بطبيعته قليل الكلام، يستمع أكثر مما يتحدث.
كانوا يتسامرون حول أحلامهم وآمالهم لما هو قادم وماضيهم وأسرهم وأحبائهم وأوطانهم، كانوا جميعًا يحلمون بـ«الجنة» جنة الأرض، الوطن الذي يسوده الحرية والأمان والأمن والعدل والرخاء.
بينما يجلس في أحد أركان الزنزانة رجل سبعيني لا يتحدث كثيرًا، يرمقه سالم بنظره ثم قاطع حديثهم متسائلًا: مَن هذا الرجل؟
ليجيبه بنيامين:

- هذا هو العراف، الجميع ينادونه بهذا اللقب، لا يعرف أحد اسمه حتى إدارة السجن.
- العراف!
رد كارول:

- نعم هو عراف السجن، يدّعي أنه يستطيع التنبؤ بالمستقبل.

- ولماذا هو في السجن؟
- تنبأ بزوال ملك آل عثمان قريبًا. هكذا رد محمود ضاحكًا.
قاسم:

كذب المنجمون ولو صدفوا، حان وقت صلاة العشاء لننهض إلى الصلاة، قام إلى الصلاة مَن قام وبقي بنيامين، حيث إنه يهودي الديانة وهاكوب وكارول فديانتهما المسيحية، بينما نهض سالم متقدمًا تجاه العراف ليجلس بجواره، ثم نظر إليه سائلًا: هل تستطيع أن تنبئنا بما هو قادم؟ هل سيأتي أحدٌ لإنقاذي؟
- رفع العراف رأسه ناظرًا في عينيه، وكان نادرًا ما يفعل، إذ كان دائم النظر إلى الأرض كثير البكاء قليل الكلام، ثم وضع يده اليمنى على رأسه، هنا نهض بنيامين وكارول وهاكوب وجلسوا بجوار سالم؛ ليستمعوا إلى ما سيقوله العراف.
ظل صامتًا لثوان ثم نهض واقفًا، بينما ظلت يده اليمنى على رأس سالم، ثم نظر إلى عينيه قائلًا:
- يجب أن أقف لمن سيملك الدنيا ولن تملكه الدنيا، تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم، تضربكم الأمواج حتى يوضع على رأسك التاج، يدور بك الزمان من الآن إلى الآن، ثم يملأ قلبك الحب فيغلِب العقل القلب، تلتقيها غريبة، وتعشقها غريبة، ثم..
هنا صمت العراف ثم جلس على الأرض، مستندًا إلى الجدار، وقد اغرورقت عيناه بالدموع، بينما ظل سالم ناظرًا إليه محاولًا فهم ما قاله واقفًا خلفه جميع مَن هم في الزنزانة بعد أن انتهوا من صلاتهم، ليستمعوا إلى ما قاله العراف.
دق جرس الباب بالمنزل الذي كان يقطن به سالم بإسطنبول، لم يكن إلا ساعي البريد يحمل خطابًا من والده، ليراه أحد الخدام بمنزل سنان بك،

فتوجه إليه قائلًا إنه لا أحد بالمنزل؛ وإنه يستطيع تسلم الخطاب نيابة عنه.

فتح سنان بك الخطاب بعد أن أحضره له الخادم، ليجلس على كرسيه تكسو وجهه ملامح الحزن، إذ يخبر عابد بك شاهين نجله بأنه سيغادر القاهرة متوجهًا لأوروبا، لقضاء عطلة برفقة عائلته، بما يعني أن خطابه لن يصل إليه إلا بعد عدة أشهر بعد عودته من أوروبا، ولن يعلم بما حدث لنجله في وقت قريب.

جلس سالم يفكر في كلمات العراف محاولًا تفسيرها بعقله، بينما لا حديث بين السجناء إلا عما قاله العراف، ولمَ تنبأ لسالم دون غيره رغم طلب جميع السجناء بل وبعض الضباط منه قراءة مستقبلهم؟

فُتِح باب الزنزانة وتقدم أحد الضباط يتبعه بعض الجنود، وقد كست ملامح وجهه الغضب الشديد، فأمسك بالعراف من ملابسه، ونهره قائلًا:

ألم يأتك الأمر بألا تتنبأ مرة أخرى؟

ثم صفعه على وجهه، فنهض سالم مهرولًا تجاه الضابط مُمسكًا إياه ثم دفعه بعيدًا، وأخذ يكيل له اللكمات وهو يقول:

أتضرب رجلًا في سن جدك أيها الأحمق؟

انهال الجنود على جسده بضرب النعال والسياط والعصي، لينتفض أصدقاؤه المقربون تجاه الجنود محاولين إنقاذه من بين أيديهم، وما هي إلا ثوانٍ حتى هرع إلى الزنزانة عشرات الجنود مُمسكين بالسياط والأغلال لينقذوا الضابط وجنوده من بين أيديهم، وما هي إلا دقائق حتى تم تقييدهم جميعًا بالأصفاد، وتأتي الأوامر بوضع كل منهم في زنزانة انفرادية لعشرة أيام، وقيدت أسماؤهم بسجلات شديدي الخطورة.

لم يكن الأمر سهلًا لأن يبقى سالم وأصدقاؤه كل منهم في سجن انفرادي لا يرون النور، ولا يحدثهم أحد ولا يتحدثون إلا مع أنفسهم، أو ما يصوره

لهم خيالهم، يأتيهم الطعام عبر فتحة ضيقة أسفل باب الزنزانة، ويأتيهم من الماء بما يكفي فقط لبقائهم على قيد الحياة.

سراييفو
28 يونيو 1914

في أثناء زيارة رسمية للأرشيدوق فرانز فرناندیز، ولي عهد النمسا وزوجته لسراييفو، تربص بهما طالب صربي يُدعى غافريلو برينسيب ليغتالهما في أثناء تلك الزيارة لتعلن النمسا حربها على صربيا، لتتحالف روسيا مع صربيا وتتحالف ألمانيا مع النمسا، ثم تعلن ألمانيا حربها على فرنسا لتعلن بريطانيا تحالفها مع فرنسا لتتشكل مجموعة الحلفاء والتي ضمت فرنسا وبريطانيا وصربيا والجبل الأسود وبلجيكا، وانضمت إليها اليابان ومجموعة المركز، والتي ضمت النمسا والمجر وألمانيا لتنطلق شرارة الحرب العالمية الأولى في أغسطس 1914م، ثم انضم العديد من الدول إلى الحرب ما بين دول الحلفاء ودول المركز، بينما كانت الإمبراطورية العثمانية على الحياد في بادئ الأمر.

فُتحت أبواب الزنازين العشرة ليخرج منها الرفقاء العشرة، بعد أن قضوا الأيام العشرة بالحبس الانفرادي عائدين إلى العنبر المجمع مجرورين على بطونهم؛ لا تقوى أرجلهم على حمل أجسادهم الهزيلة مقطعةً ظهورهم من آثار جلد السياط.

هرول إليهم أصدقاء العنبر مُحاولين تضميد جراحهم ببعض الأقمشة المبللة، وتخفيف آلامهم ببعض الكلمات التي لا قيمة لها.

نظر سالم إلى قاسم الذي يرقد بجواره قائلًا:

- هل فكر أحد من قبل في الهرب من هذا الجحيم؟

لم يرد قاسم بالكلمات، بل كانت الدموع تكفي وتغني عن أي كلمات قد تقال.

ليرد سليمان:

- هل تفكر في الهرب يا سالم ونحن على هذه الحال؟ هل اشتقت إلى المزيد من جلد السياط؟

ليصمت مستسلمًا إلى تلك الأيادي التي تحاول تضميد جراحه، محاولًا تصديق نصائح رفاقه بالصبر والاحتساب والدعاء.

مرت بضعة أيام، وبدأت جراحهم في الشفاء تدريجيًا، ثم توالت الشهور على الوتيرة نفسها.

نوفمبر 1914م

جلس سالم برفقة زملائه بفناء السجن بعد انتهائهم من تناول الإفطار وإجراءات طابور الصباح، ليقول بنيامين متسائلًا:

- لماذا كل هذا الظلم في دولة ترفع شعار الخلافة الإسلامية؟ هل في دينكم كل هذا الظلم؟

ليرد قاسم منفعلًا:

- وماذا تعلم أنت عن ديننا حتى تكيل له هذه الاتهامات؟

- أنا أسأل لأعلم، أجبني أنت أيها العالم.

- الإسلام براء مما يفعلون، لا يحمل ديننا إلا الحب والعدل والحرية

والتسامح.
ليرد بنيامين ساخرًا:

- نعم نرى هذا بوضوح.
اندفع قاسم تجاهه مسرعًا، لينهض عدنان واقفًا أمامه قائلًا:

- هل اشتقت للحبس الانفرادي مرة أخرى؟ هل اشتاق ظهرك لقرع السياط؟ ثم نظر إلى بنيامين قائلًا:

- لا تكن مستفزًا في أسئلتك، لم يأت الله بدين يحض على الكراهية، وليس كل من يتحدثون باسم الدين صادقين؛ دائمًا ما يوجد من يتخذ من الدين ستارًا لفعل كل ما هو سيئ على هذه الأرض، وذلك في كل الأديان، وليس الإسلام فقط.
نظر سالم إليهم قائلًا:

- دعكم من هذا الشجار الأزلي الذي لم ولن ينتهي، دعونا نفكر فقط في أننا بشر من بني آدم، لا شأن لنا بمَن يؤمن الآخرون وبما يعبدون، يجب فقط أن نعامل الآخرين كما نحب أن نُعامَل.
انطلق صوت البروجي في الأرجاء مُنذرًا ببدء طابور توزيع الأشغال على المساجين، لينطلق بعده النزلاء كلٌ في عمله.
نظر سليمان إلى محمود في أثناء قيامهم بتنظيف أحد العنابر قائلًا:

- هل سمعت ما قاله سالم يوم خروجنا من الحبس الانفرادي؟
ليرد محمود:

- لا أذكر يا سليمان، كان هذا منذ شهور.
- تحدث عن إمكانية الهرب.

- يا سليمان، تعلم أني كنت أحد ضباط الجيش العثماني، انظر إلى تلك الأرض التي تقف عليها، حتى الأرض غرسوا فيها الأحجار التي لا يستطيع تحريك الحجر الواحد منها أقل من خمسين رجلًا، بالتأكيد كان يُهذي من شدة الألم.
نظر إليه مرتبكًا ثم قال:

- اصمت يا محمود، هناك أحد الجنود قادم تجاهنا.
ليبتسم له محمود ابتسامة ساخرة قائلًا:

- تريد الهرب، وقد أصابك الهلع من خُطوات أحد الجنود؟
بجوار إحدى آبار الصرف التي تمتلئ بفضلات المساجين، وقف هاكوب وكارول وكمال الدين ممسكين بالأسطال والدلاء يقومون بتفريغ البئر، مما يحوي من قاذورات في أحد الفناطيس الموضوعة على إحدى العربات التي تجرها الخيول، لينظر لهم أحد الجنود قائلًا:

- بالله إنكم تعملون بجد؛ سنفتقدكم عندما يتم ترحيلكم إلى سجن الجزيرة.
اقترب كمال الدين من الجندي متسائلًا:

- عن أي جزيرة تتحدث؟
- سيتم ترحيلكم إلى سجن الجزيرة في غضون أيام قليلة؛ صدرت الأوامر.
نظر كارول إلى الجندي متسائلًا بينما يسكب أحد الأسطال بالفنطاس، ولماذا نحن فقط دونًا عن باقي السجناء؟
- بالطبع لستم وحدكم، بل كل من تم قيده بسجلات شديدي الخطورة.
- وأين تقع هذه الجزيرة؟
- لا أعلم؛ أكملوا عملكم وكفى حديثًا.

جلس كمال الدين بأحد أركان الزنزانة بعد انتهاء يوم عمل شاق متحدثًا إلى كارول وهاكوب:

- ترى إلى أي جزيرة سوف يأخذوننا؟

ليرد هاكوب:

- وهل يوجد فارقٌ بين سجن يدي قله وسجن الجزيرة؟ أسوار وجنود وسلاح وخيول وأبواب حديدية.

ليرد كمال الدين:

- أعتقد أنه يُخيفنا فقط، ولن يوجد أي ترحيل إلى أي مكان آخر.

نهض كارول قائلًا:

- يجب أن نخبر الرفاق بما سمعنا.

اتجهوا إلى أحد جنبات الزنزانة حيث يجلس سالم وباقي الرفاق ليخبرهم بما سمع.

ليرد عبد الله:

- سمعت هذا الكلام من أحد السجناء أيضًا.

كثر الحديث حول الأمر، وتبادلوا جميعًا الآراء حول ما سمعوا لينهي عدنان حديثهم قائلًا:

- لنذهب إلى الجزيرة، فلا يوجد أسوأ مما نحن فيه، ثم نظر إلى سالم قائلًا: - لماذا أراك صامتا يا سالم؟

نهض سالم ثم اتجه إلى حيث يجلس العراف بخُطوات متباطئة، ثم جلس بجواره متسائلًا:

- ماذا سيحدث لنا أيها العراف؟

لم يُجبه العراف، بل ظل ناظرًا إلى الأرض في صمت بملامح متجمدة.

فُتح باب الزنزانة ليدخل أحد الضباط برفقته عدد من الجنود ممسكاً بورقة في يده مُناديًا على أسماء «هاكوب وكارول وعدنان وقاسم وكمال الدين وعبد الله ومحمود وبنيامين وسليمان وسالم»، وغيرهم من بعض المساجين بالعنبر ليقيدهم الجنود بالأغلال مصطحبين إياهم إلى إحدى الزنازين، وما إن وضعت الأقفال على باب الزنزانة حتى وجه محمود حديثه إليهم قائلًا:

- بالتأكيد سيتم ترحيلنا غدًا أو بعد غد على أكثر تقدير.

ليرد سالم:

- إلى أي جزيرة سيتم ترحيلنا في ظل أجواء الحرب المُشتعلة في أوروبا؟

- قلت لكم لن يتم ترحيلنا إلى أي جهة، هم فقط يريدون إخافتنا. هكذا رد كمال الدين ليرد كارول متسائلًا: هل ما زلتَ تُصر على رأيك رغم كل ما يحدث؟

نمى إلى مسامعهم في أثناء الحوار صوت نحيب بأحد أركان الزنزانة المظلمة ليتجهوا إليه، فإذ بسليمان يستند إلى أحد الجدران وقد أجهش بالبكاء، ربت سالم على كتفه ثم جلس بجواره مُحتضنا إياه قائلًا:

- نحن بجوارك يا سليمان، نشعر بما تشعر به، الحياة تسير، والأيام دول، لا حزن يدوم، ولا سعادة تدوم، يولد الحزن من رحم الحياة، وتتمخض الأحزان فتكون السعادة، وتأكد أن أشد الأوقات ظلمة قبل طلوع الفجر مباشرة.

مر يومان ليفتح باب الزنزانة ويدخل العديد من الضباط والجنود

المدججين بالسلاح، ثم وضعوا الأقمشة السوداء فوق أعين السجناء ليلقوا بهم بالعربات ذات الأقفاص الحديدية، بعد نحو 15 دقيقة بدأ ينمو إلى مسامعهم أصوات البواخر وارتطام الأمواج بالصخور وأجسام السفن، ومع استنشاقهم نسائم البحر انتفضت أجسادهم من شدة برودة الرياح لتفتح السلاسل والأقفال ويساقوا مكبلين بالأغلال صاعدين على ظهر إحدى السفن التي تستعد للتحرك.

اصطف المساجين على ظهر الباخرة ليأمرهم أحد الجنود بالجلوس في أماكنهم، ثم توجه إلى مكتب القيادة، حيث تواجد خليل بك قائد السفينة.

- خليل بك، هذا كشف بأسماء المُرحّلين.

- تمام، أنا قادم.

أمسك خليل بك بكشف الأسماء وتوجه حيث جلس السجناء ليتمم على عددهم وهُويتهم، ثم أصدر أوامره إلى أحد الضباط باصطحابهم إلى الزنازين.

نهض سالم ورفاقه وباقي السجناء، بينما لا تزال أقمشة الحجب السوداء تغطي أعينهم ليسوقهم الجنود مكبلين بأغلالهم إلى دور سفلي بالباخرة.

فتح الجنود الأبواب الحديدية، ونزعوا أقمشة الحجب عن أعينهم، ثم فكوا قيودهم ليزجوا بهم في الزنازين، نظر سالم إلى ذاك الممر الضيق والذي تصطف أبواب السجون الحديدية على جانبيه، ثم ضرب بقدمه أرضية الممر مرتين ليدفع به أحد الجنود إلى الزنزانة مع رفقائه التسعة وبعض المساجين، ثم تم تسكين بقية السجناء في أماكنهم، لتغلق الأبواب بالسلاسل والأقفال، ويصعد الجنود إلى سطح الباخرة.

ما إن انصرف الجنود حتى نظر بنيامين إلى كمال الدين، ثم قال ساخرًا:

- لن نُرحَّل إلى أي مكان هم يُريدون إخافتنا فقط.

لم يرد كمال الدين، بينما نظر إليه باقي الرفاق ضاحكين.
اقترب عدنان من سالم ليجلس بجواره متسائلًا:

لماذا ضربت الأرض بقدمك؟ هل تفكر في شيء؟
لم يُجبه سالم بل اكتفى بالنظر إليه باسمًا ليردف عدنان قائلًا:

لو أني أستطيع قراءة ما يجول برأسك؟
نظر إليه سالم قائلًا:

هل تذكر ما قاله العراف؟
- نعم، أذكر قال:

تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.
- وقال تضربكم الأمواج حتى.. ليقاطعه عدنان:

نعم سمعت هذا أيضًا، يبدو أن هذا الرجل كان لديه من العلم الكثير، ولكن لماذا ضربت الأرض بقدمك يا سالم؟
- أفكر في شيء ما، سأخبرك به في الوقت المُناسب.
بدأ السجناء بافتراش أرض الزنزانة نائمين، وكانوا لا يستطيعون النوم إلا على ظهورهم جاعلين من سيقانهم وبطونهم وسائد لرءوس رفقائهم، حتى يستطيعوا النوم بأعدادهم الكبيرة في تلك المساحة الضيقة.
تحركت السفينة في طريقها إلى الجزيرة، بينما جلس خليل بك قائد الباخرة مع بعض الضباط متسائلًا: هل وُزّعت الأغطية على النزلاء؟
ليُجيب أحد الضباط:

تمام أفندم، سُكّنوا ووُزّعت الأغطية.
- مُروا الجنود بإعداد الطعام.

- تمام خليل بك، جارٍ إعداده بالفعل، متى سنصل إلى الجزيرة خليل بك؟
- أدعو الله أن نصل ولا تصيبنا قذيفة طائشة، فالحرب مُشتعلة وآخر ما أتاني من أخبار أن السلطان قرر الانضمام للحرب.
ليرد أحد الضباط:

يا الله، ما لنا وهذه الحرب؟
- عندما يطلب منك حلفاؤك المساعدة لا تملك إلا أن توافق، خاصة أنك مدين لهم بالكثير، إن جرت الأمور على ما يُرام، فمن المتوقع أن نصل في غضون شهر.
نظر أحد الضباط متسائلًا:

أين تقع هذه الجزيرة سيدي؟
- موقع الجزيرة سر من أسرار الدولة العليِّة، لا يعلمه إلا القليل، لا أستطيع إخبارك، كل ما أستطيع قوله هو أن تلك الجزيرة تقع تحت السيادة العثمانية منذ أعوام، بُنيت قلعة كبيرة بها تستخدم كمعتقل لشديدي الخطورة.

سكان الجزيرة يعيشون حياة بدائية، يعبدون الأوثان، ويتحدثون بلغة غريبة أقرب إلى لغة الأمازيغ، إلا أن الكثير منهم يتحدث التركية بحكم التعايش لسنوات، كما أن المساجين يعملون معهم في صيد الحيتان والأسماك وبعض أعمال الزراعة، كل ما يعنيهم هو أن نبقى على وثنهم المقدس، حياتهم أقرب للقبلية، يتزعمهم كهنة آلهتهم، يعمل معظمهم بصيد الحيتان واستخراج الشحوم من بطونها لنشتريها منهم بأثمان زهيدة، ونستخدمها كنوع من أنواع الوقود.
رد أحد الضباط متسائلًا:

ولماذا لم تعلن سيادة العثمانيين على تلك الجزيرة، وتُعين أحد الولاة كأي ولاية عثمانية؟
- لن تسمح لنا أوروبا بتوسيع أقاليمنا في الوقت الحالي، خاصة في ظل ما نعانيه من ضعف في الكثير من الجوانب، وأحيطكم علمًا بأن هذه الجزيرة لا يعلم بأمرها إلا السلطان وقليل من الباشوات والضباط والجنود العاملون بها، فالأمر في غاية السرية.
- وهل يتم الإفراج عن المعتقلين بهذه القلعة يومًا ما؟
- بالطبع يُفرج عنهم حين يموتون.
- متى سنعود إلى إسطنبول؟
- بعد ستة أشهر، سنتسلم القلعة من قائدها خالد بك، ثم يستقل برفقة ضباطه وجنوده إحدى السفن عائدًا إلى إسطنبول، ثم يعود بعد ستة أشهر للجزيرة، ونتحرك نحن باتجاه العودة؛ أنتم تعلمون بالطبع وأخبرتم ذويكم بأننا في مأمورية طويلة الأجل.
ليرد أحد الضباط:

تمام خليل بك، ولكن لم نكن نعلم طبيعة المأمورية.
- بالطبع لأنها سرية للغاية؛ علمتم ما يكفي، فليذهب كل منكم لعمله.
فُتح باب القبو المؤدى إلى ممر الزنازين، كاشفًا عن بعض الجنود ممن يحملون أواني الطعام.
وقف سالم محاولًا رؤيتهم لكنه لم يستطع أن يراهم جميعًا، إذ كانت زنزانته الأخيرة في هذا الممر لتفتح أبواب الزنازين، الواحد تلو الآخر لتسليم الطعام، وأباريق المياه إلى مَن هم بالزنزانة، ثم يغلق الباب بعد تسلمهم حصتهم من الغذاء والماء.
حاول سالم إخراج رأسه من البوابة الحديدية لينظر خارجها ليدفعه أحد الجنود إلى الداخل، ثم أُغلقت السلاسل والأقفال ليصعد الجنود إلى سطح الباخرة بعد إغلاقهم بوابة القبو الخشبية.

بعد أن تأكد سالم من إغلاق باب القبو وانصراف الجنود، علا صوته متسائلًا:

هل يوجد أحد الجنود بالممر؟ فليجيبني أحدكم.
ليأتيه الرد من أحد النزلاء:

لا يوجد أحد، ماذا تريد؟
- هل رأيت عددهم؟
- نعم، خمسة.
- كم عدد النزلاء في زنزانتك؟
- انتظر سأقوم بعدهم، إننا ثلاثون فردًا، لماذا كل هذه الأسئلة؟
لم يُجبه ليواصل حديثه:

أريد أن تخبرني كل زنزانة بعدد نزلائها.
لتأتيه الإجابة على التوالي:

ثلاثون فردًا.
ثم واصل حديثه قائلًا:

أريد من كل زنزانة أن تخفي ملعقتين فقط، لا تردوهما للجنود، وأن تكسروا إناءين من الفخار، وتخفوهما وذلك كل وجبة.
نهض بنيامين ليقف بجواره متسائلًا: ماذا تريد أن تفعل؟
- سأخبركم بكل شيء في أوانه.
اقترب عدنان ومحمود ليجلسا بجوار سالم، بعد أن جلس ليتناول طعامه ليبدأ عدنان حديثه قائلًا:

أخبرني عما يجول برأسك.
ليرد محمود:

أنا أعلم بما يفكر سالم، يفكر بالهرب، ولكن إلى أين سنهرب! إلى مياه البحر؟
- اصبر يا محمود، وسأخبركم جميعًا بما يدور في رأسي حينما تكتمل الخطة، فبالتأكيد لن أفعل شيئًا بمفردي.
بعد انتهاء الطعام أمسك سالم بإناءين من الفخار، ثم كسرهما ثم وصل إلى مسامعهم أصوات تكسير الأواني الفخارية بباقي الزنازين.
نظر كمال الدين إلى كارول قائلًا: يحلم سالم بالهرب من الأسوار إلى بطون الحيتان والقروش.
ليرد كارول:

دعه يحلم، هل أصبح الحلم أيضًا من الممنوعات؟
- بالطبع لا، ولكن قد يؤدى حلمه لقتلنا جميعًا، وإلقائنا بالبحر لنصبح طعامًا للأسماك.
- لم يفصح سالم عما يدور برأسه بعد، عندما نعلم ما يريد سنتخذ قرارنا بالمشاركة أو الرفض.
نظر هاكوب إليهم قائلًا:

أنا أثق بسالم، انتظروا فقط حتى يفصح عما يُريد.
ليرد سليمان والذي كان يستمع إلى حديثهم:

وأنا سأفعل أي شيء سيقوله سالم.
ليرد كمال الدين قائلًا بابتسامة ساخرة: بالله تالله أشعر باقتراب أجلنا.
مر يومان ليفتح باب القبو، وقد نمى إلى مسامع السجناء صوت أحد الجنود محدثا زميله قائلًا:

سمعت خليل بك يقول إننا سنصل في غضون شهر على الأكثر.
ليرد الجندي قائلًا:

في المرة السابقة استغرقت الرحلة خمسة وعشرين يومًا فقط.
- هذا هو اليوم الثاني، ما زال أمامنا الكثير.
فتحت السلاسل والأقفال ليتسلم الجنود الأواني الفارغة صاعدين إلى سطح الباخرة، بعد إعطاء السجناء حصتهم من وجبة الغداء.
بعد أن فرغ السجناء من طعامهم وسمعت أصوات تكسير الأواني الفخارية في الزنازين، اجتمع سالم برفاقه ثم وجه حديثه إلى محمود قائلًا:

محمود، كنت ضابطًا بالجيش العثماني، لذا أريد أن أعرف رأيك فيما سأقوله الآن، وضعت خطة ولكنها ليست خطة للهرب.
نظر الجميع إليه بدهشة ليرد محمود: لأي غرض وضعت الخطة؟
رد سالم:

للسيطرة على السفينة وتوجيهها حيث نريد.
- تعلم يا سالم أن الباخرة عليها الكثير من الجنسيات، هنا يوجد هاكوب من أرمينيا، وكارول من صربيا، وعدنان من البوسنة، وأنت من مصر، بخلاف الأتراك وباقي جنسيات النزلاء الآخرين، إلى أي جهة سنبحر بفرض أن خطتك نجحت في السيطرة على الباخرة؟
- دعنا نسيطر على الباخرة أولًا ثم نفكر إلى أي جهة سنبحر.
- وما خُطتك؟
- كانت أرضية سجن يدي قله من الأحجار بخلاف الأسوار العالية، وحصار الجنود على الأبراج ودوريات الخيالة التي تجوب الأرجاء باستمرار.
- هنا أيضًا يوجد نوبات حراسة مسلحة.
- ولكنها ليست بنفس الاستعدادات والتسليح، استمعوا إلى خطتي، ثم أستمع لرأيكم.
اجتمعوا جميعًا يتناقشون ويتجادلون ويتبادلون أطراف الحديث حتى نهضوا، وقد ملأت أعينهم نظرات التحدي والحماس بخلاف كمال الدين

وبنيامين اللذين أبديا تحفظًا على ما تم شرحه لهما، بيد أنهم أقسموا جميعًا على الولاء لسالم وخطته.
كان نزلاء الزنزانة المقابلة لهم وباقي النزلاء ممن يصل إلى مسامعهم ما يقال يجلسون منصتين، حتى نادى أحد النزلاء بإحدى الزنازين المجاورة بصوت مرتفع:

يا سالم، سمعت أحد الجنود يقول إننا سنصل في غضون شهر وأنا معك فيما تريد أن تفعل، ليأتي الرد من باقي الزنازين وتتلاحم أصوات السجناء بعبارات التأييد لسالم وخطته.
انتبه سالم لما قيل بعينين لامعتين وابتسامة ثقة لما لمسه من تأييد السجناء لخطته، ثم رد قائلًا:

لقد سمعته يا صديقي وسنُنفذ في أقرب وقت، ولكن دون مُساعدتكم، لن تنجح خطتي أبدًا، لا أريد أن يكون مصيرنا قاع البحر.
ظل السجناء يتناقلون ما سمعوا عن خطة الهرب عبر القضبان الحديدية، ويخفون بعد كل وجبة القليل من الملاعق والأواني الفخارية بالقدر الذي لا يتيح للجنود ملاحظة اختفاء تلك الأشياء.
بعد مرور يومين على الروتين نفسه، وقف سالم خلف الأسوار الحديدية مناديًا:

أريد من كل زنزانة أن تخبرني بعدد الملاعق والأواني التي أخفتها.
ليأتيه الرد من الزنزانة الأولى بعد ثوان:

خمس ملاعق وثلاث أوان ثم الثانية: ست ملاعق وإناءان من الفخار، ثم تتوالى الردود من باقي الزنازين.
جهر سالم بصوته من خلف القضبان قائلًا:

كل زنزانة تخفي ما جمعته، وتوقفوا عن إخفاء أي أوان، أو ملاعق حتى لا يلحظ الجنود تناقص عددها، فما جمعناه يكفي إن شاء الله.
وقف خليل بك يتفقد بعض الخرائط الموجودة أمامه، ثم نظر إلى البوصلة التي يُمسكها بيده، ليطرق أحدهم باب مكتبه.
- تفضل
دخل أحد الجنود قائلًا: أفندم خليل بك.
- اذهب لأحمد أفندي وأخبره بأني أريده.
- تمام، خليل بك.
دخل أحمد أفندي وهو أحد ضباط الباخرة، بعد أن أذن له خليل بك بالدخول.
ليوجه له خليل بك حديثه في أثناء تفقده تلك الخرائط على مكتبه قائلًا: أحمد أفندي، لديك ثلاث مئة سجين بالقبو منذ أربعة عشر يومًا، ألم تفكر في أنهم يحتاجون لأشعة الشمس ولو لمرة واحدة خلال هذه الرحلة حتى لا يصابوا بمرض جلدي أو غيره من الأمراض؟
نظر له أحمد أفندي مُرتبكًا لا يعرف ماذا يقول، ليردف خليل بك قائلًا: اذهب وأخرج السجناء على دفعات، لا تُخرجهم جميعًا مرة واحدة واحرص على ألا يمر اليوم دون أن يتعرضوا جميعًا لأشعة الشمس لمدة نصف الساعة على أقل تقدير، واحرص على أن يتعرضوا لأشعة الشمس مرة أسبوعيًا.
- تمام خليل بك.
وقف سالم خلف القضبان قائلًا:

أريد من كل زنزانة أن تعطى ما جمعته من أوان وملاعق للتي تليها حتى تصل إلى آخر زنزانة، واحرصوا على ألا تسقط قطعة في الممر، فيلاحظها الجنود.
ليبدأ النزلاء في مناولة ما جمعوه لبعضهم على التوالي في حرص شديد،

ليجمعوا في آخر زنزانتين بالممر ما وصل إليهم، ويخفوه تحت بعض الأغطية.
توجّه أحمد أفندي بصحبة بعض الجنود ليُفتح باب القبو المُؤدي للزنازين، وما إن سمع أحد النزلاء صرير الباب الخشبي حتى ارتعشت يده، وسقط بعض القطع الفخارية على أرضية الممر، أخفى السجناء مسرعين ما بأيديهم من الملاعق والأواني، وما إن نزل الضابط وجنوده إلى الممر حتى علت وجوههم بعض الدهشة عندما رأوا تلك الأواني المكسورة المتناثرة على الأرض، ساد الصمت للحظات حتى علا صوت أحد السجناء صارخًا:

أريد الخروج من هذا القبر، أريد العودة إلى وطني، أخرجوني من هنا، ثم أسرع ممسكًا إحدى الأواني ليكسرها، وأخذ يقذف الضابط وجنوده بتلك الأجزاء المكسورة.
فهم أصدقاؤه ما يحدث، وأنه يدّعي الانهيار ليبرر للضابط والجنود سبب وجود تلك الأجزاء المكسورة على أرضية الممر.
اجتمع حوله أصدقاء الزنزانة متظاهرين بمحاولة تهدئته، ثم نظر أحدهم إلى أحمد أفندي قائلًا:

- عذرًا سيدي، كثيرًا ما يتعرض لهذه الحالة، ثم يهدأ في خلال دقائق قليلة.

بدأ بالفعل بالتظاهر بالهدوء التدريجي، ليوجه الضابط حديثه لسجناء هذه الزنزانة قائلًا: سأخرجكم إلى سطح الباخرة لتستنشقوا نسائم البحر، وتستمتعوا قليلًا بنور الشمس، ثم أمر جنوده بفتح الزنزانة ليخرجوا واحدًا تلو الآخر لتوضع الأغلال بأيديهم، وأرجلهم ثم وجه الضابط حديثه إليهم قائلًا:

- لا تفتحوا أعينكم فجأة عند خروجكم من القبو، ثم نظر إلى باقي الزنازين قائلًا:

- ستخرجون جميعًا لسطح الباخرة بالتناوب.

نظر محمود لرفاقه بعد أن تأكد من خروج السجناء، وإغلاق باب القبو ثم جهر بصوته ليُسمِع باقي السجناء:

- قال الضابط إننا سنخرج بالتناوب، يجب أن نجعل تركيزنا على أماكن تمركز جنود الحراسة ومكتب القائد وقمرة القيادة، وأماكن مبيت الضباط والجنود.

نظر عدنان لسالم قائلًا:

- يرسل الله لنا الهدايا.

ليرد سالم:

- علينا أن نستغلها كما ينبغي.

فتح باب القبو بعد نحو خمس عشرة دقيقة، وبعد أن أغلقت السلاسل والأقفال فتحت أبواب الزنزانة التي تليها ليتوالى خروج السجناء إلى سطح الباخرة.

جلس سالم ورفاقه على سطح الباخرة في وضع القرفصاء مكبلين بأغلالهم، يرمقون بنظرهم ما أوصاهم به محمود، ليستطيعوا تحديد أماكن تمركز جنود الحراسة ومكتب وقمرة القيادة ومكاتب ومبيت الضباط والجنود.

بعد عودة السجناء إلى الزنازين، أخذ الرفاق يتفقدون ما تم جمعه من كسر الأواني الفخارية، والملاعق التي اختلست في الأيام الماضية، ثم اقترب سالم من القضبان الحديدية موجهًا حديثه للزنزانة المقابلة له قائلًا:

- استعدوا يا رفاق، سنبدأ خطتنا الليلة عند الغروب عندما تعلو الأمواج وتشتد الرياح، ثم نادى لرفاق الزنزانة ليقتربوا ليردف قائلًا: سأعيد عليكم الخطة كاملة، كانت أرضية سجن يدي قله من الحجارة، أما هذه الأرضية فصنعت من الخشب، كما أنه خشب متهالك، قديم نستطيع ببعض الجهد وباستخدام ما جمعنا من أدوات إزالة جزء منه بما يسمح بمرورنا أسفل القضبان، لن نحفر بجوار باب الزنزانة، بل بجوار الحائط، ثم نقوم بنزع الأجزاء الداخلية أولًا، وسوف تكون الأجزاء الخارجية أسهل، وعندما يأتي الجنود بالطعام سنضع على ما حفرنا الأغطية حتى لا يلاحظوا ونستطيع أن نكمل ما بدأنا، يجب أن ننتهي من عملنا في أسرع وقت فليس أمامنا إلا أربعة عشر يومًا، بعد خروجنا سنختبئ أسفل سلم القبو بينما سيجلس سليمان في نهاية الممر بين الزنزانتين للفت انتباه الجنود عند إحضارهم الطعام، عندما يقترب الجنود منه ليتفقدوا كيف خرج من زنزانته ننهال عليهم من الخلف ونستولي على أسلحتهم وملابسهم وبالطبع مفاتيح الأقفال ونزج بهم في إحدى الزنازين، بعد فتح أبوابها؛ ستكون مهمتي أنا وعدنان ومحمود وهاكوب وكارول وقاسم وعبد الله وسليمان هي السيطرة على مكتب القائد وقمرة القيادة وأنتم مهمتكم مبيت الضباط.

نزلاء الزنازين الموجودة على يمين سلم القبو مهمتكم جنود الحراسة في الجهة اليمنى للباخرة، ونزلاء الجزء الأيسر مهمتكم الجهة اليسرى من الباخرة، ثم نظر خلفه قائلًا:

- كمال الدين وبنيامين سيبقيان في القبو، فقد اعترضا على الخطة عند طرحها.

نهض كمال الدين قائلًا:

- أنا معك يا سالم، لن أكون مشاهدًا لما يحدث من بعيد، ثم أتبعه بنيامين قائلًا:

- أنا معك يا سالم، ولكن دعني أتواجد في القبو مع بعض المساجين؛ تحسبًا لأي طارئ قد يحدث.
نظر إليه سالم قائلًا:

- فكرة جيدة بنيامين، ولكن لن تتواجد في القبو، اختر تسعة من الرفاق تحت قيادتك، واختبئوا في مكان آمن على سطح السفينة، إن أمسكوا بنا عليكم أن تحاولوا إنقاذنا قدر استطاعتكم.
بدأ العمل الذي لم يكن سهلًا على الإطلاق، فقد كانت أخشاب الأرضية سميكة للغاية تستند إلى عروق خشبية أكثر سمكًا وغلظة ولم يكن ما أخفوه من كسر الأواني والملاعق يفي بالغرض، بل كان لسواعدهم وأرجلهم وأظفارهم وأسنانهم النصيب الأكبر من الجهد، كان عندما يلاحظ الجنود عند إحضارهم الطعام في بعض الأحيان سيلان الدماء على أيديهم وتورم أفواههم يتظاهرون بنشوب معركة وهمية بين السجناء ليبرروا تلك الآثار الملحوظة، وكانوا يضطرون للراحة ليومين أو ثلاثة ليستجمعوا قواهم، ويواصلوا العمل مرة أخرى.
بعد عشرة أيام انتهت أعمال انتزاع الأخشاب داخل الزنزانتين ليجلس محمود مستندًا إلى القضبان الحديدية موجهًا حديثه لرفاقه قائلًا:

- يجب أن تنزع الأخشاب خارج الزنزانة يوم التنفيذ، قبل أن يلاحظها الجنود.
ليرد قاسم:

- لننفذ غدًا أو بعد غدٍ على أقصى تقدير.

هنا وقف سالم قائلًا:

- بل الليلة بعد الغروب، وقبل أن يأتي الجنود بوجبة العشاء حيث تتصاعد الأمواج، وتشتد الرياح ليلًا سيكون الوقت مناسبًا للتنفيذ.

ليقول عبد الله:

- سالم على حق، فاليوم هو الرابع والعشرون لنا على ظهر السفينة، قد نصل غدًا أو بعد غد، لا وقت لدينا.

ليردف سالم قائلًا:

- سنبدأ بعد تسلم وجبة الغداء وانصراف الجنود.

ما إن انصرف الجنود وأغلق باب القبو بعد تسليم وجبة الغداء حتى بدأ نزلاء آخر زنزانتين بنزع الألواح الخشبية الخارجية لتتلاحم الفجوة التي تم صنعها خلف القضبان مع تلك التي انتهوا منها بعد نحو ساعتين خارج القضبان، ليخرج سالم ورفاقه محتضنين زملاءهم بالزنزانة المقابلة، بينما سادت أجواء الفرح والنصر وجوه النزلاء بباقي الزنازين التي لا تزال مغلقة.

نظر سالم لأحد النزلاء بالزنزانة المقابلة، والذي كان أكثرهم حماسًا وعملًا سائلًا:

- ما اسمك؟

ليرد:

- اسمي رشوان.

ربت سالم على كتفه قائلًا:

- ستكون ضمن مجموعتي يا رشوان، ثم نظر خلفه قائلًا وأنت أيضًا يا كمال الدين.
نظر محمود لباقي السجناء قائلًا:

- فليخلع الجميع نعالهم، لا وقت لدينا، سيختبئ عشرة من زنزانتنا وعشرة من زنزانتكم أسفل سلم القبو، ويظل باقي الرفاق في أماكنهم حتى لا يلاحظ الجنود.
هنا نظر سالم لرشوان قائلًا:

- اختر تسعة من الرفاق ليكونوا معنا.
ثم اتجه محمود أسفل سلم القبو بخُطوات متسارعة ليتبعه باقي السجناء.
التفت عدنان موجهًا حديثه إلى سليمان قائلًا:

- ستجلس هنا بين الزنزانتين وحاول أن تلفت انتباه الجنود بشتى الطرق حتى نتمكن منهم، ثم أشار إلى الرفاق خلف القضبان بجهة اليمين قائلًا:

- مهمتكم جنود الحراسة بالجهة اليمنى، ثم نظر يسارًا ليقول: وأنتم الجهة اليسرى، ثم أدار وجهه سائرًا تجاه أسفل سلم القبو ليختبئ رفقة زملائه.
وجه قاسم حديثه إلى سالم قائلًا:

- بالله يا سالم، لا أريد أن تسيل الدماء.
ليرد سالم:

- ومن يريد هذا يا صديقي؟ اطمئن ستكون مهمتنا السيطرة على مكتب القائد وقمرة القيادة، وبالطبع نريدهم أحياء لأننا لا نعرف كيفية قيادة هذه الباخرة.

ثم وجه حديثه لباقي الرفاق قائلًا: تذكروا جيدًا، مجموعة العشرة «أنا ومحمود وعدنان وهاكوب وكارول ورشوان وقاسم وعبد لله وكمال الدين وسليمان»، مهمتنا السيطرة على مكتب القائد وقمرة القيادة وباقي الرفاق هنا ومن هم بالزنزانتين مهمتهم مبيت الضباط ومكاتبهم.

مرّ الوقت ببطء وملل حتى نمى لآذانهم أصواتُ قرع نعال الجنود فوق رؤوسهم، ليشير عبد الله إلى سليمان الذي يستند إلى الجدار في نهاية الممر لينبهه باقتراب بدء مهمته، وتسمَّروا في أماكنهم متجهمي الوجوه، محاولين حتى إخفاء أصوات أنفاسهم.

فُتح باب القبو الخشبي لينزل الجنود من حاملي الطعام إلى الممر، وما إن رأوا سليمان حتى علت وجوههم ملامح الدهشة والتعجب وهرولوا إليه سائلين:

- كيف خرجت من زنزانتك؟

نظر سليمان إليهم قائلًا:

- سأحكي لكم كل شيء.

اندفع سالم ورفاقه تجاه الجنود المجتمعين حول سليمان ليفرضوا سيطرتهم عليهم بسهولة ويسر، ودون مقاومة تذكر من هول المفاجأة.

ارتدى سالم وأربعة من رفاقه زي الجنود، ثم زجوا بهم في إحدى الزنازين.

فُتح باب القبو ليندفع منه السجناء كالسيل الجارف، حيث انطلقت مجموعة العشرة بقيادة سالم تجاه مكتب وقمرة القيادة، ومجموعتا اليمين واليسار تجاه جنود الحراسة على جانبي السفينة، والذين كانوا وقوفًا يلتحفون بالأغطية من شدة الرياح الباردة.

تفاجأ جنود الحراسة بالهجوم عليهم من الخلف، وساعد السجناء في مهمتهم ارتفاع أصوات تلاطم الأمواج، وارتطامها بجسم السفينة ممتزجًا بعصف الرياح الشديدة التي كانت تزوم حولهم من جميع الاتجاهات، إلا أن بعض الجنود بادروا بإطلاق بعض الأعيرة النارية تجاه السجناء، ليصاب بعضهم بجراح ما بين الخطير والهيِّن، وما هي إلا دقائق حتى قُيّد جنود الحراسة، واستولوا على أسلحتهم وملابسهم، ثم اقتيادهم إلى القبو للزج بهم خلف القضبان الحديدية ليقف السجناء مصطفين على جانبي السفينة، مرتدين زي الجنود مُمسكين بأسلحتهم، بينما اتجه بنيامين ورفاقه ليختبئوا بين المداخن المصطفة أمام باب القبو.

نمى إلى آذان أحد الجنود بعنبر المبيت أصوات الأعيرة النارية وصياح بعض جنود الحراسة بالخارج، ليختلس النظر من خلف إحدى النوافذ، وما إن رأى ما يحدث حتى هرول موقظًا زملاءه النيام لينتفضوا فزعين الواحد تلو الآخر، ثم تحركوا يتحسسون الأرض بأقدامهم تجاه مخزن السلاح، والذي كان أسفل عنبر المبيت مباشرة.

بينما يجلس خليل بك يتصفح كتابًا بين يديه حتى انتفض جسده؛ عندما سمع صوت إطلاق النيران ليتفاجأ بكسر باب غرفته واندفاع سالم ورفاقه تجاهه، أمسك خليل بك بسلاحه سريعًا ليطلق رصاصة تجاههم لتستقر بجسد عدنان الذي سقط أرضًا بين أقدام رفاقه، وثب سالم تجاه خليل بك ليطرحه أرضًا مُمسكًا بيده التي أطلقت رصاصتين استقرتا في سقف الغرفة لينهال عليه باللكمات حتى سقط السلاح من يده، ليمسك محمود بالسلاح موجهًا فوهته لرأس خليل بك قائلًا:

- انتهى الأمر؛ أصبحت السفينة تحت سيطرة السجناء، إما أن تستمع لما نقول، أو يكون مكانك قاع البحر.

نهض سالم مهرولًا تجاه عدنان، وقد تجمع حوله بعض الرفاق، ثم نظر إلى خليل ليصيح بأعلى صوته:

أين طبيبُ هذه السفينة؟
فتح الجنود باب القبو المؤدي إلى مخزن السلاح ليجدوا أحد زملائهم ويُدعى سليم جالسًا على كرسيه مُمسكًا بسلاحه أمام بوابة المخزن ليتقدم نحوه أحد الجنود ليمسك بملابسه قائلًا:

- ألا تسمع شيئًا مما يحدث بالأعلى أيها الغبي؟
نظر إليهم سليم نظرة بلهاء، ليجهر أحدهم بصوته قائلًا:

- افتح الباب.
أخرج سليم المفتاح من جيبه مرتبكًا، وما إن اقترب من الباب حتى سقط المفتاح على الأرض ليُمسك به أحد الجنود مُسرعًا فاتحًا باب المخزن، ليندفع الجنود بداخله تجاه تلك الصناديق الخشبية والتي تحوي بداخلها الأسلحة والذخائر، وما إن فُتحت الصناديق حتى تجهمت وجوههم، واعتلت قسماتها علامات الدهشة الممتزجة بالخوف والترقب.

- اتجهت أنظارهم إلى باب المخزن حيث يدفع بنيامين سليم داخله ليسقطه أرضًا، ثم يغلق بابه بالسلاسل والأقفال، ثم نظر خلفه مُحتضنًا اثنين من رفاقه كانا قد اختبئآ برفقته خلف بعض الصناديق المقابلة لباب المخزن بعد أن أفرغاه مما يحوي من سلاح.
نهض سالم مهرولًا إلى مبيت الضباط ليجده فارغًا تمامًا لينزل إلى سطح السفينة متجهًا إلى القبو المؤدي للزنازين، ليقابله أحدهم قائلًا:

- أصيب العديد من الرفاق بجروح خطيرة.
وما إن نزل حتى وجد جميع الزنازين مُمتلئة بالضباط والجنود ليقف في الممر قائلًا:

- أين الطبيب؟

لم يُجبه أحد ليُكرر سؤاله، أين الطبيب؟ خليل بك مُصاب ونريد إسعافه.
اقترب أحدهم من القضبان الحديدية مجيبًا:

- أنا طبيب؛ ثم أتى صوت من آخر زنزانة مجيبًا:

- أنا أيضًا طبيب.

رد سالم متسائلًا:

- أين الضباط المسئولون عن قمرة القيادة؟

ليقترب اثنان من الضباط تجاه الأبواب الحديدية قائلين:

- نحن مسئولان عن قمرة القيادة.

ناوله أحد رفاقه المفاتيح ليفرج عن الطبيبين والضابطين، ثم وضع المفاتيح بجيبه بعد إغلاق الأبواب واتجهوا في حراسة اثنين من المساجين المحررين المسلحين إلى مكتب القائد.
تفاجأ الأطباء عند وصولهم لمكتب القائد بأن خليل بك سليم معافى، وأن المصاب هو عدنان.
وجه سالم حديثه لمحمود قائلًا:

- إن لم يسعفوا عدنان وباقي الرفاق المصابين فلا حاجة لنا بهم، اقتلهم وألقي بهم في البحر؛ ثم نظر إلى باقي الرفاق ليقول:

- هاكوب وكارول آتوني بكل ما تم جمعه من سلاح في مبيت الضباط، سليمان ابحث عن بنيامين، وأحضره إلى هنا، رشوان اصطحب ضباط قمرة القيادة إليها، ثم نظر إليهم قائلًا:

- أوقفوا سير السفينة حتى أخبركم في أي اتجاه سنتحرك، قاسم سيتولى قيادة الرفاق المصطفين على جانبي السفينة، ثم نظر إلى عبد الله قائلًا:

- اجمع لي باقي الرفاق أمام مكتب القيادة، ثم نظر إلى الأطباء جاهرًا بصوته:

- لا أراكم تسعفون الرجل، هل اخترتم الموت؟
لينظر إليه أحدهم قائلًا:

- فليحمله أحد معنا إلى العيادة.
وجه سالم حديثه إلى عبد الله وقاسم:

- احملاه إلى العيادة مع باقي المصابين، واصطحبا معكما اثنين من الرفاق المسلحين، وأخبراهم إما إنقاذ الرفاق أو قتل الأطباء.
نظر سالم إلى محمود الذي يقف مستندًا إلى المكتب مُمسكًا بسلاحه، بينما يجلس مقيد اليدين والقدمين على المقعد أمامه خليل بك، وقد ارتسمت على وجهه علامات الدهشة والحزن مما حدث.
ليوجه سالم حديثه لمحمود قائلًا:

- ماذا لو اتجهنا إلى مصر؟ ليست لأنها وطني فقط، بل لأن في استطاعتي أن أوفر لكم جميعًا حياة آمنة.
ليرد محمود:

- لا أمانع من الذهاب إلى أي مكان، ولكن ننتظر رأي باقي الرفاق.
نظر خليل بك إلى سالم وعلى وجهه ابتسامة سخرية ليقول:

- هل تريد الذهاب إلى مصر! هل تظن أنك تسير على قدميك تتحرك وقت تشاء وتقف وقت تشاء؟ لا يوجد لديك من الوقود إلا ما يكفي ليومين أو ثلاثة والجزيرة هي أقرب يابسة الينا.
اقترب منه سالم قائلًا:

- أين تقع هذه الجزيرة؟
- لن أخبرك بأي معلومة.
- إن لم تخبرني سأقتلك.
- لن تستطيع قتلي، لأني فقط من لديه كل ما تريد معرفته.
- وما فائدتك إن لم تخبرني بما تعرف؟ خليل بك، لا نريد أن نؤذي أحدًا، بل كل ما نريده أن نحيا ما بقي من حياتنا أحرارًا.
- وهل تستحقون هذه الحرية؟ لو أنكم تستحقونها لمنحكم الله إياها.
- ها نحن الآن أحرار وأنت أسيرنا، منحنا الله حريتنا وسلب منك حريتك.
- وضع مؤقت، سيتغير قريبًا.
- هل أنت من تقرر كيف ستكون إرادة الله؟
- يجب أن تعلم يا سالم أن كل ما فعلتموه وستفعلونه سيذهب هباءً، لن تستطيعوا أن تكملوا ما بدأتم.
هنا وقف محمود وقد علا صوته قائلًا:

- سالم، لمَ كل هذا النقاش والجدال؟ إما أن يفعل ما نأمره، أو يُقتل فلا حاجة لنا به.
- أصبت الرأي يا محمود، سيكون قتله مشروعًا، نحن ندافع عن أنفسنا وبقاؤه حيًا يهدد حياتنا وحريتنا جميعًا إن لم يفعل ما نريد.
ردّ خليل وقد تغيرت نبرة صوته وارتسمت على ملامحه الحدة والغضب قائلًا:

- ليس أمامكم من طريق إلا الوصول للجزيرة، وعند وصولكم ستكون نهايتكم على يد جنودنا، وإن لم يستطع الجنود فلن تستطيعوا الهرب من مصيركم المحتوم، هذه الجزيرة لها حاكم هو «ياسوئيل» إلههم المعبود، هل تعتقد أننا لم نحاول ضم الجزيرة للولايات العثمانية؟ بالطبع حاولنا مرارًا ولكن تفاجأنا بقوى غريبة تقاتلنا ليست كقوى البشر.

ثم جهر بصوت أجش قائلًا:

- لن تستطيعوا هزيمة ياسوئيل العظيم، لن تستطيعوا.

ارتسمت ملامح الدهشة على وجه سالم ومحمود مما سمعوا ليفتح أحد الرفاق باب المكتب قائلًا:

- اجتمع الرفاق أمام المكتب سيد سالم.

نظر سالم لمحمود قائلًا:

- تعالَ معي.

خرج سالم بعد أن أمر أحد الرفاق بالبقاء بالمكتب لحراسة خليل بك، ثم نزل بين رفاقه واتجهوا جميعًا لمؤخرة السفينة خلف المداخن، ثم بدأ حديثه قائلًا:

- أنجزنا الجزء الأول من خطتنا بنجاح، كنت أتمنى أن ننجح في توجيه السفينة إلى مصر، حيث أستطيع أن أوفر للجميع حياة آمنة، ولكن لا يوجد ما يكفي من وقود، بالإضافة لظروف الحرب الجارية، لذا سنضطر للتحرك تجاه الجزيرة التي لا نعلم عنها شيئًا، سننزل مرتدين زي الضباط والجنود وسنغطى أعين المحتجزين بالأقمشة السوداء ونكمم أفواههم وهم يرتدون زي السجناء، لا نعلم مدى قوتهم، ولكن ليس أمامنا سوى

المجازفة، سيكون الهدف الثاني لنا هو احتلال سجن الجزيرة، هل منكم من كان ضابطًا أو جنديا بالجيش أو الشرطة العثمانية؟

يجيبه أربعة أفراد بأنهم كانوا ضباطًا بالجيش العثماني، واثنان آخران بأنهما كانا جنديين.
ليرد قائلًا:

- ارتدوا جميعًا زي الضباط وباقي الرفاق زي الجنود، ثم نظر حوله سائلًا أين السلاح؟
ليرد بنيامين:

- جُمع بمبيت الضباط، بنادق ومسدسات ومتفجرات وذخائر، بالإضافة لخمسة مدافع عثمانية مفككة ولا نعلم كيفية تركيبها.
ليرد محمود قائلًا:

- أستطيع المحاولة.
ثم رد أحد الضباط السابقين:

- أستطيع تركيبها وتشغيلها يا سالم.
صاح كمال الدين قائلًا:

- هل تريدها حربًا يا سالم؟ سيسيل الكثير من الدماء، هل هربنا من السجن إلى الموت؟
نظر سالم الي الرفاق وجهر بصوته قائلًا:

- إما أن نعيش أحرارًا أو يكون الموت أولى بنا لتعلو أصوات الرفاق تأييدًا.. نحن معك يا سالم.. نعيش أحرارًا أو الموت أولى بنا.
نظر سالم لمحمود قائلًا:

- أعطي كل منهم بندقية وذخائر، وما يستطيع حمله من متفجرات، والضباط والجنود السابقين يتولون تدريبهم بمنتهى السرعة.
ثم أخرج المفاتيح من جيبه ليعطيها لكارول قائلًا:

- كارول وهاكوب، أخرجا جميع السجناء إلى سطح السفينة بعد التأكد من تقييدهم جميعًا بالأغلال، سليمان وعبد الله تعالا معي.
اتجه برفقة عبد الله وسليمان تجاه مكتب القائد وهو يحدثهم قائلًا:

- قيدوا خليل بك بالأغلال وأحضروه إلى سطح السفينة، وعندما أعطيكم الأمر بقتله اتجهوا إلى مقدمة السفينة خلف مبيت الضباط، وأطلقوا عيارًا ناريًا في الهواء، ثم ألقوا بأحد الصناديق في الماء وكأنه قتل وأُلقي بجسده في المياه، واحرصوا على ألا يراكم أحد، ثم اسجنوه بمخزن الذخيرة الفارغ.
ثم تركهم واتجه إلى قمرة القيادة ليوجههم بإكمال الإبحار تجاه الجزيرة، واتجه بعد ذلك للعيادة، حيث يحاول الأطباء إسعاف عدنان، وباقي المصابين، وما إن وصل سالم للعيادة حتى بادره أحد الأطباء قائلًا:

- مات خمسة سجناء، لم يكن بمقدورنا فعل شيء وأنقذنا السبعة الآخرين.
أدار سالم وجهه باحثًا عن عدنان، وما إن وجده حتى وجه حديثه للأطباء سائلًا:

- كيف هي حالته؟

ليجيبه أحدهم:

- هو على ما يُرام، إصابته بالكتف.

جلس بجوار عدنان، ثم اتجه بحديثه للأطباء قائلًا:

- متى سيفيق ويستطيع التحدث والحركة؟

ليجيبه أحدهم:

- سيفيق خلال ساعة أو أقل، ويستطيع الحركة فور إفاقته.

إسطنبول
ديسمبر 1914م

طُرق باب منزل سنان بك ليفتحه الخادم، لم يكن سوى ساعي البريد، وقد أتى بخطاب من القاهرة، أمسك سنان بك بالخطاب، وبدأ بقراءة محتواه:

عزيزي سنان بك رستم

سلام الله عليك ورحمته وبركاته.

أعرِّفك بنفسي، أنا سيد أفندي شاهين شقيق عابد بك شاهين، وعم سالم عابد شاهين، وصلني خطابك الذي أوضحت به ما حدث لابن شقيقي سالم، وآلمني ما علمت، وعلمت أنك بذلت ما في وسعك لإنقاذه مما يعاني، وأخبرك بأن أخي عابد بك وأسرته قد غادروا المحروسة منذ عدة أشهر إلى أوروبا، ثم انقطعت أخبارهم تمامًا منذ نشوب الحرب العالمية، ولا أعلم عنهم أي شيء حتى تاريخه، وأخبرك أيضًا بأني حاولت التواصل مع السلطان حسين كامل في مصر، ولكن باءت محاولاتي بالفشل، ولا زلت أحاول التواصل برجال السرايا دون جدوى، رجائي إليكم أن تراسلوني بما هو جديد حتى تنتهي الحرب، وأستطيع القدوم إلى إسطنبول لمتابعة الأمر معكم، أو يعود أخي عابد بك إلى القاهرة فيستطيع التصرف كما يجب.

خالص تحياتي

سيد أفندي شاهين

بأحد أركان السفينة جلس بنيامين مجاورًا لكمال الدين الذي بدأ حديثه قائلًا:

- تالله لا يريد سالم إلا هلاكنا، هل نستطيع قتال العثمانيين يا بنيامين؟
ليرد قائلًا:

لا أعلم هل فعلنا الصواب أو أخطأنا، ولكن ليس أمامنا أي خيار، إما أن نموت على هذه السفينة، أو نحاول النجاة على أرض الجزيرة.
- لا أعلم ما يدور برأس سالم يا بنيامين، ماذا يريد أن يفعل؟
- كان يريد السيطرة على السفينة، والاتجاه إلى مصر، ثم فوجئ بقرب نفاد الوقود، فلم يبق له أي اختيارات، إما المواجهة وإما الموت.
- لن أستمع إلى سالم ثانية، إن كتب الله لنا النجاة.
دخل سليمان إلى العيادة بخُطوات متباطئة، ناظرًا إلى عدنان ثم وجه حديثه لسالم:

- كيف حاله وباقي الرفاق؟
- هو بخير يا سليمان، ولكن مات خمسة من الرفاق، وهناك بعض المصابين، هل أخرجت خليل إلى سطح السفينة؟
- ليس بعد، وجدت شيئًا بالمكتب أريدك أن تراه.
نهض سالم ثم نظر إلى بعض الرفاق قائلًا:

اذهبوا مع الأطباء لمُحاولة مُداواة أيادي وأفواه الرفاق ممن كانوا يكسرون الأخشاب بالزنزانة.
دخل سالم برفقة سليمان إلى مكتب القيادة ليجدوا عبد الله واقفًا أمام أحد المكاتب يتطلع إلى إحدى الخرائط، اقترب سالم وسليمان ناظرين إلى الخريطة ليبدأ عبد الله حديثه قائلًا:

يبدو أنها خريطة توضح اتجاه سير السفينة وموقع الجزيرة، ليرد سليمان:

نعم إنها جزيرة صغيرة بالمحيط الأطلسي، تقع شمال غرب إفريقيا، جنوب غرب أوروبا، ويبدو أن خليل وضع تلك العلامات لتدل على خط سير السفينة، ومن آخر علامة يتضح أننا اقتربنا كثيرًا، ثم اتجه سليمان إلى إحدى الطاولات ليمسك ببعض الأوراق قائلًا:

هذه الأوراق بها بعض الخرائط للجزيرة وتصميم القلعة وأبوابها ومواضع أبراج المراقبة بها، كما يوجد أيضًا بعض الأوراق الخاصة بهذه المأمورية وتكليفات الضباط وكشوف بأسماء وأعداد المساجين وأسمائهم، وأعداد وأسماء الضباط والجنود على ظهر السفينة.
نظر إليهما سالم ثم قال متبسمًا:

رائع، هذا كل ما نريد، عبد الله، اصطحب خليل إلى السجن، وبدّل ملابسه، وكمِّم فاه، وضع أحد الأقمشة السوداء على عينيه، وأعِد المساجين إلى الزنازين مرة أخرى مكبلين بالأصفاد، واجمع الرفاق أمام المكتب.
خرج سالم متحدثًا إلى رفاقه بعد أن اجتمعوا قائلًا:

إليكم خطتنا لدخول القلعة دون قتال أو عنف، سأرتدي أنا والضباط والجنود السابقون ومجموعة العشرة ما توافر لنا من ملابس الضباط، وسيرتدي الباقون ملابس الجنود، سنخبر قيادات القلعة بأنه قد أتت الأوامر السلطانية بعودة قوة القلعة كاملة إلى إسطنبول لظروف الحرب، كما أتت الأوامر باستبدال خليل بك بقائد آخر في اللحظات الأخيرة، ثم نظر إلى محمود قائلًا:

سيقوم محمود بدور القائد، إن صدّقوا ما نقول وامتثلوا لتلك الأوامر الزائفة سيطرنا على القلعة بسلام، وإن شكّوا بأمرنا سنباغتهم بالقوة

المسلحة.
ليرد قاسم متسائلًا:

وماذا عن القتلى والجرحى من الرفاق؟ سيثيرون الشكوك لا محالة.
ليرد:

القتلى سنصلي عليهم حسب دينهم، ثم نلقي بجثثهم في البحر، والجرحى لا أعلم كيف سأدبر أمرهم، ولكن الأكيد أننا لن نتخلى عنهم.
هدأت الأمور على الباخرة وأحكم سالم سيطرته الكاملة عليها، واستفاق عدنان وتحسنت حالته بصورة كبيرة، واجتمع سالم بمجموعة العشرة التي اختارها لمعاونته في إدارة الأمور والتي ضمت كلًا من «عدنان ومحمود وعبد الله وقاسم وسليمان وهاكوب وكمال الدين وكارول ورشوان وبنيامين» ليشاورهم في أمر المصابين.

بدأ محمود الحديث قائلًا:

لا مجال للتعاطف، من استطاع السير على قدميه قبل وصولنا كُتبت له النجاة، ومن لم يستطع نلقي به في البحر، ليُقاطعه عدنان قائلًا:

وكيف سيثق بنا الرفاق، وقد ألقينا ببعضهم في البحر أحياء؟
ليرد قاسم:

وكيف سنلقى الله، وقد لطخت أيدينا بدماء الأبرياء؟
ليقول كمال الدين:

قلت لكم إننا هالكون لا محالة.
قاطعه كارول قائلًا:

من الممكن أن نلبسهم ملابس السجناء، ثم ندعي حدوث بعض الشغب من المساجين، فاضطررنا لإطلاق النار عليهم ثم نحررهم بعد أن نحكم سيطرتنا على القلعة.
ليرد سالم:

هذا الرأي سيثير الشكوك.
وقف بنيامين قائلًا:

الحل موجود بهذه الأوراق التي عثرنا عليها بمكتب خليل بك، والتي توضح أن هناك ثلاث سفن أخرى ترسو على شواطئ الجزيرة.
قال محمود:

ماذا تقصد؟
- هذه السفينة بالتأكيد تحتاج للصيانة بعد وصولها من هذه الرحلة الطويلة، سيظل المصابون قابعين في مكان آمن بها حتى يغادر قائد القلعة، ومَن معه على متن سفينة أخرى.
لينهض سالم قائلًا:

هذا هو الرأي الصائب.
بعد مرور يومين بينما يجلس سالم بمكتب القائد ممسكًا ببعض الأوراق التي تخص القلعة، وبعض بيانات ضباطها، دخل أحد الرفاق قائلًا:

سالم، لقد ظهرت الجزيرة.
تقدم الرفاق إلى مقدمة السفينة، واتجه سالم للنافذة ليدخل عدنان واقفًا إلى جواره مستندًا إلى الجدار محدقين أنظارهم لتلك اليابسة، والتي تبدو ككتلة خضراء تحيطها المياه التي تعكس زرقة السماء.
اقتربت السفينة من الجزيرة لتبدو أكثر وضوحًا، سادت ملامح الدهشة وجوه الجميع، وارتسمت على ملامحهم ابتسامة سعادة غامرة من روعة

المنظر، كانت ككتلة خضراء بين جبلين تكسوهما الخضرة يخترق كل جبل منهما شلال، تنهمر مياهه مكونة نهرين متعانقين على أرض الجزيرة كضفيرة مياه مجدولة تقسم أرضها نصفين، حيث تصطف الأزهار ذات الألوان البديعة على جانبيها، حتى تصل لمصبها بمياه المحيط.
نظر سالم لعدنان الذي كان يقف محدقًا بذهول ثم نطق قائلًا:

نيبو.
سأله سالم:

ماذا تقول؟
ليرد عدنان:

نيبو، تعني «الجنة» بلغتنا البوسنية.
أدار سالم وجهه للجزيرة قائلًا:

إذًا هي نيبو، مملكة الجنة التي طالما راودتنا الأحلام أن نصنعها على الأرض، لنجعلها جنتنا يا عدنان مهما كلفنا الأمر.
نظر إليه، ثم مد يده لتلتقي قبضتها بقبضة يد سالم قائلًا:

أعاهدك صديقي أن تكون جنة كل من تطأ قدماه أرضها.
أدار سالم وجهه تجاه مقدمة السفينة حيث تكدس الرفاق متأملين الجزيرة، ثم صاح قائلًا:

ماذا لو كان أحد الضباط ممسكًا بمنظاره ليراكم بهذا الشكل؟ تذكروا جيدًا جميعنا منذ هذه اللحظة ضباط وجنود بالجيش العثماني، وقائدنا هو محمود الذي أصبح اسمه منذ اللحظة أحمد أفندي مراد، تذكروا هذا جيدًا، وليذهب كل جندي إلى موقعه ممسكًا بسلاحه.
نظر محمود إليه باسمًا، ثم اتجه صعودًا إلى مكتب القيادة ممسكًا ببعض

الأوراق ليرسل سالم أحد الرفاق مناديًا مجموعة العشرة، لمراجعة أسمائهم المستعارة ومهامهم، ورتبهم حسب كشوف المأمورية التي عثروا عليها سابقًا، ثم أرسل محمود لأحد الحجامين من الرفاق ليهذب شعر رؤوسهم والشوارب واللحى، حتى يبدو مظهرهم لائقًا كضباط وجنود.
رست السفينة على شواطئ الجزيرة في غضون ساعة أو تزيد قليلًا ليكن في استقبالهم خالد بك قائد القلعة، وبعض الضباط والجنود، وينزل الرفاق يتقدمهم محمود ليصافح خالد بك، الذي نظر إليه مستغربًا متسائلًا:

أين خليك بك؟
لم يكن من الصعب على محمود أن يعلم أن من يُحدثه هو خالد بك من خلال رتبته العسكرية ليرد قائلًا:

أعرفك بنفسي خالد بك، أنا أحمد أفندي مراد قائد هذه الرحلة، فقد أتى لخليل بك قبيل الإبحار بدقائق خبر وفاة أحد أقاربه لتأتي الأوامر أن أتولى مهمة القيادة وأنقل لكم أوامر الباب العالي بسرعة المغادرة إلى إسطنبول، فقد قرر السلطان الانضمام إلى دول المركز في تلك الحرب التي بلغت ذروتها، وهو ما أدى إلى تغيير الكثير من الخطط في العديد من الأصعدة.
ليرد خالد بك:

بلغتنا أنباء الحرب، ولكن ما كنت أعلمه أننا على الحياد.
- كان هذا في بدايتها، أما الآن فنحن أحد أطرافها.
أشار محمود لسالم بيده ليتقدم سالم تجاهه ممسكًا بيده أوراق المأمورية ليقدمها محمود لخالد بك، أمسك بها خالد ثم أعطاها لمحمود مرة أخرى دون النظر لمحتواها قائلًا:

أنت الآن قائد القلعة، لا حاجة لي في هذه الأوراق ثم حدق في يده قائلًا:

لا بأس على يديك أحمد أفندي، أراهما متورمتين تملؤهما الجراح!
ليرد محمود بينما يحاول سالم ورفاقه إخفاء أيديهم عن أعينهم:

كانت رحلة شاقة خالد بك، لا وقت لدينا لنروي قصتها، أريد تسلم القلعة في أسرع وقت.
رمق خالد بك بعض المدافع المصطفة على سطح السفينة، ثم أدار وجهه لمحمود مستفسرًا، كيف سنُنزل تلك المدافع بعد تركيبها؟
سادت ملامح الارتباك على سالم ورفاقه حتى ابتسم محمود قائلًا:

خالد بك، هذه المدافع ستبقى على ظهر السفينة حماية لكم، قمنا بتركيبها وتجهيزها للعمل لتأمين عودتكم سالمين بمشيئة الله، العالم في حالة حرب، ثم رفع كف يده قائلًا:

ألم أقل إنها كانت رحلة شاقة خالد بك؟
تبسم خالد ضاحكًا ثم قال:

يبدو أنك قليل الخبرة أحمد بك، هل تظن أننا سنغادر على متن هذه السفينة بعد هذه الرحلة الشاقة؟
نظر له محمود متظاهرًا بملامح الإحراج قائلًا:

عذرًا سيدي، كنت أتمنى أن أبقى برفقتك وقتًا أطول للاستفادة من خبرتك.
تبسم خالد، ثم أشار بيده للتقدم تجاه القلعة.
كانت القلعة كبيرة نسبيًا ذات بوابة كبيرة وأسوار عالية، وأبراج للحراسة والعديد من الفتحات التي تستقر خلفها فوهات المدافع، بالإضافة لثلاث

سفن وبعض الزوارق التابعة للأسطول العثماني، بخلاف السفينة التي قدموا على متنها.
اصطحب خالد بك محمود ورفاقه في جولة داخل القلعة، وأعلمهم بكل كبيرة وصغيرة عن كل ما يخص القلعة والجزيرة وأهلها، ثم نادى أحد الأفراد قائلًا:

هذا هو عبيد ابن الحارس من أهل الجزيرة وأحد أهم أعواننا سيساعدكم كثيرًا في العديد من الأمور.
وصل السجناء إلى فناء القلعة معصوبي الأعين، مكممي الأفواه مقيدين بأغلالهم محاطين بالرفاق المسلحين، ليتسلم سالم مفاتيح الزنازين من محمود ثم اقتادهم لتسكينهم.
مدَّ خالد بك يده مصافحًا محمود، ليعانقه بحرارة قائلًا:

تصحبكم السلامة خالد بك، فنظر إلى عينيه قائلًا:

تذكر جيدًا أحمد أفندي، لا تحاول المساس بوثنهم المقدس، ولا تحاول الاقتراب من بوابة ياسوئيل.
أومأ محمود برأسه موافقًا، ثم أدار خالد بك وجهه مغادرًا القلعة رفقة الضباط والجنود ليعتلوا ظهر إحدى السفن الأربع التي ترسو على شواطئ الجزيرة، مُبحرين بعد أن فككوا المدافع، ونقلوها إلى السفينة التي قد أعدها خالد بك للإبحار.
وقف سالم ورفاقه بشرفات القلعة، بينما كان باقي الرفاق يتابعون عبر الأبراج وبعض الفتحات بالأسوار تحرك السفينة مُبتعدة عن شواطئ الجزيرة، وما إن غابت عن أنظارهم حتى وثب سالم ورفاقه، ودوت أصوات الضحكات والبكاء بجنبات القلعة، وساد التقبيل والعناق بين الرفاق وغمرت الجزيرة أصداء قرع الطبول والغناء حتى الصباح.
سادت نظرات التعجب والدهشة وجوه الموظفين والعمال بالقلعة، وكان

معظمهم من أهل الجزيرة، وكثر التهامس فيما بينهم حول ما يحدث من سالم ورفاقه.
مع شروق شمس اليوم التالي، استدعى سالم عبيد ابن الحارس طالبًا جمع موظفي القلعة بالفناء الذين اصطفوا في خلال بضع دقائق، ليتبعهم مجموعة العشرة، وباقي الرفاق، ثم جهر بصوته مخاطبًا إياهم قائلًا:

لاحظت بينكم أمس كثرة الحديث حول ما قمنا به من احتفالات، ولمحت نظرات التعجب والدهشة في أعينكم، وقد جمعتكم الآن لأفسر لكم كل الأمور.. نحن ضباط وجنود لا ننتمي للإمبراطورية العثمانية، قمنا بالتخطيط للسيطرة على القلعة، ونجحت خطتنا، منذ هذه اللحظة هذه الجزيرة ملك لأهلها، جئنا اليكم خُدامًا ولسنا حكامًا، جئنا ليسود العدل والأمن والأمان والحب والرخاء والحرية والإخاء، علمنا بوجود الكثير من أهل الجزيرة خلف أسوار هذه السجون.

لذا.. لقد أصدرنا قرارًا بالإفراج عنهم جميعا ليعودوا سالمين إلى ذويهم، علمنا أن أكثركم أميون جهلاء لا تعلمون شيئًا عن الأديان السماوية وكتبها، سننشئ المدارس ونبني المساجد والكنائس والمعابد ولكم حرية الاختيار.

سندير ثروات بلادكم بالقسط، وستحصلون على أرباح جهدكم وعملكم، أصبح اسم جزيرتكم من اليوم هو «نيبو» وتعني الجنة، فأعينونا أن نجعل هذه الأرض مرآة لجنة السماء، سيذهب نصفكم الآن لينبئ أهل نيبو بما سمع، ثم تعودون مساءً ليذهب النصف الآخر ليخبر من لم يعرف، وأخبروهم أننا على استعداد لمقابلة أهل الجزيرة جميعًا إن أرادوا؛ للرد على أي استفسارات أو تساؤلات قد تجول بخاطرهم، فليذهب نصفكم الآن، وليبقَ النصف الآخر كلٌّ في عمله.
انصرف مَن انصرف وبقي مَن بقي بالقلعة ليتجه سالم برفقة مجموعة

العشرة إلى قاعة الاجتماعات الملحقة بمكتب القائد، وما إن جلسوا حول الطاولة حتى بادر محمود قائلًا:

سالم لا يعرف معنى إضاعة الوقت.
ليرد سالم قائلًا:

يجب أن نطرق الحديد وهو ساخن، أريدك أن تأتيني بكشوف أسماء جميع السجناء ووظائفهم، قبل اعتقالهم، وأن تحررهم جميعًا عدا الضباط الذين قدموا معنا من إسطنبول، وأن تبقي المفرج عنهم بالقلعة؛ لنكلِّفهم ببعض المهام حسب تخصصاتهم.
نهض كمال الدين، وكان في العقد الرابع من عمره، سمين البدن قصير القامة، حنطي البشرة، أصلع الرأس، ذو شارب كثيف مدبب الطرفين، موجهًا حديثه لسالم قائلًا:

ما لي أراك تصدر الأوامر وكأنك أصبحت ملكًا على الجزيرة؟
ليرد عدنان:

ومَن أحق بها من سالم؟، فلولاه لكنا قابعين في سجون العثمانيين حتى هذه اللحظة.
ليرد سالم:

كمال الدين مُحق يا عدنان، أعطيت نفسي ما لا أستحق.
وقف محمود، وكان طويل القامة أسمر البشرة، ذا شعر مجعد لامع حليق الشارب واللحية، جاهرًا بصوته:

أنا أؤيد سالم كأول ملك لمملكة نيبو، فهو المؤسس والقائد وصاحب الفكر والتخطيط لكل ما حدث، وأفتخر بأن أكون أحد أعوانه.
صاح بنيامين قائلًا:

وأين العدل والحرية في أن نفرض على هذا الشعب مَلِكًا لا يعرفه؟

يجب أن يختار شعب نيبو ملكهم.
ليرد قاسم:

وهل يعلم شعب نيبو أحدنا حتى يختار؟
هنا نهض كارول متحدثًا:

من يرى أنه أهلٌ للمُلك فليقل، والأمر شورى بيننا، ومَن يحصل على الأصوات الأعلى هو الملك المؤسس لتلك المملكة الوليدة.
هنا قاطعه كمال الدين قائلًا:

أنا أرى أني أصلح ملكًا لتلك الجزيرة.
ليرد سالم:

وأنا أرى أني لا أصلح.
نظر الرفاق إليه متعجبين مما قال، ثم أردف قائلًا:

نعم عن أي ملك تتحدثون؟ نحن على أرض الجزيرة منذ الأمس، وأنا على قناعة بأني كنت متسرعًا عندما خاطبت موظفي القلعة من أهل الجزيرة، وكأني أُمثِّل حكومتها الجديدة، ولكن هذا ما راودني من إحساس، حيث إن هذه الجزيرة كانت بالفعل تحت السيطرة العثمانية، والآن نحن المسيطرون على القلعة، وبالتالي على الجزيرة، يا رفاق يجب أن نفكر أولًا في قيادة القلعة، ثم يكون لكل حادث حديث.
ليرد رشوان:

هذا هو الصواب، الآن كمال الدين يريد أن يكون قائدًا للقلعة، وأنا أقترح أن يكتب كل منا مَن يراه مناسبًا في ورقة دون توقيع، ومَن يتم

اختياره بأغلبية الأصوات يصبح مكلفًا بإدارة الأمور، ونعاهده أن نكون له سندًا وعونًا.
ارتضى الرفاق بما قاله رشوان، ليجلسوا في مقاعدهم بعد إحضارهم بعض الأوراق ليكتب كل منهم اسم من يراه مناسبًا للقيادة، ليسفر فرز أصواتهم عن صوتين لكمال الدين وواحد لعدنان، وثمانية لسالم، ليصبح قائدًا للقلعة.
نظر عدنان إليهم وكان في العشرين من عمره، طويل القامة، نحيف البدن، أبيض البشرة، بني الشعر، ذا عينين عسليتين ليقول متعجبًا:

مَن الذي كتب اسمي في ورقته؟
نظر إليه قاسم ضاحكًا:

ظننت أنك أنت من اخترت نفسك.
ليرد عدنان:

لا والله لم يحدث.
نظر إليه الرفاق ضاحكين ليقطع سالم ضحكاتهم قائلًا:

لا عجب أن أحدنا اختارك يا عدنان، أنت لا تعرف قدر نفسك جيدًا .
وجه كارول حديثه للرفاق، وكان في العقد الثالث من عمره متوسط الطول، حنطي البشرة خيف الشعر أمرد الوجه قائلًا:

كنت مديرًا لرئيس هيئة البريد العثمانية منذ أعوام، ولديّ من الخبرة ما يكفي لتنسيق وكتابة جداول الأعمال ومحاضر الاجتماعات، وغيرها من الأعمال الإدارية.
ليرد سالم:

إذًا ستكون مديرًا لمكتب القائد، أعد لنا جدول أعمال اجتماعنا الأول بتاريخ اليوم.

عُقد الاجتماع الأول بتاريخ 30 ديسمبر 1914م، والذي أسفر عن تشكيل مجلس القيادة برئاسة سالم ومجموعة العشرة المكونة من:

عدنان، نائبًا للقائد.
محمود، ناظرًا للجيش والشرطة.
كارول، مديرًا لمكتب القائد.
رشوان، مديرًا لشئون قيادات القلعة.
عبد الله مديرًا لموظفي القلعة.
قاسم، خازندار بيت المال.
سليمان، نائبًا لخازندار بيت المال.
وبنيامين وهاكوب وكمال الدين، للتواصل بين القلعة وأهل الجزيرة.
بعد انتهاء اجتماعهم الأول وتوزيع الوظائف والمهام، نهض كمال الدين جاهرًا بصوته قائلًا:

أنا جائع، ألم تلاحظوا أننا لم نأكل منذ أمس.
ليرد عدنان:

يبدو أن رشوان وعبد الله مقصران في عملهما، أليسا مديري القلعة؟ أقترح إقالتهما يا سالم.
سادت الضحكات بين مجموعة العشرة، حتى نهض رشوان وعبد الله ليأمروا الطهاة بإعداد الطعام.
أعطى سالم الإذن بالانصراف للجميع باستثناء عدنان ومحمود وقاسم وسليمان بعد أن أمر كارول باستدعاء عبيد بن الحارس «ذلك الرجل الذي أخبرهم خالد بك بأنه أحد أعوانهم من أهل الجزيرة»، ثم نظر إلى محمود قائلًا:

أريد أن يكون لنيبو جيش قوي، نحن لا نعلم ردة فعل العثمانيين بعد أن يعلموا أننا سيطرنا على الجزيرة، وأريد أن ينغمس رجالنا بين أهلها في شتى المجالات، عملهم وأفراحهم وأحزانهم وبناء بيوت تجاور بيوتهم، حتى عائلاتهم وأسرهم أريد أن يتزوج رجالنا بنسائهم لنصبح مزيجًا متجانسًا، لا يقوى أحد على أن يفرق بيننا.

ليرد محمود:

تمام أفندم، ولكن هذا قد يستغرق وقتًا طويلًا قد يمتد لسنوات.

- أعلم ذلك، ولكن علينا أن نبدأ من الآن.

ثم تابع قائلًا:

أريد جميع الكشوف التي أعطاها لك خالد بك، والتي تخص مساحة نيبو وتعداد سكانها، ووصفهم ومعتقداتهم الدينية، وما ينتجونه من ثروة سمكية ومحاصيل زراعية وثروة حيوانية وداجنة، وكشوف السجناء ووظائفهم قبل اعتقالهم، وما نملكه من سفن وخيل وسلاح وذخائر، وما لدينا من أموال وذهب في خزائن القلعة.

- تمام أفندم، سأحضرهم حالًا.

خرج القائد محمود بينما كان عبيد بن الحارس داخلًا ليأذن له سالم بالجلوس، ثم نظر إليه متسائلًا:

من يكون «ياسوئيل»؟

ليرد بن الحارس:

هو إلهنا المُقدس، هو نبعُ الحياة لكل ما هو حي على هذه الأرض.

ليقاطعه سالم:

- هل تقصد أرض الجزيرة أم العالم أجمع؟

- بل العالم أجمع، هذه الجزيرة سيدي هي مهد الخلائق على هذه الأرض.

- اشرح لي بالتفصيل يا عبيد.
- كل ما هو حي خلقه ياسوئيل، تدفقت المياه من بطنه فخرج الذكر، ثم تدفقت مرة أخرى لتخرج الأنثى، ثم جميع الكائنات من حيوانات وطيور وحشرات وبذور النباتات، تقربنا لياسوئيل، هو أمان الرزق والسعادة، وتخطي عقبات الحياة وآلامها.
- وكيف تتقربون لياسوئيل؟
- بالقرابين.
- وما تلك القرابين؟
- في نهاية كل يوم خميس من كل أسبوع نتوجه إلى بوابة ياسوئيل ليستقبلنا الكهنة، ويعطي كل منا ما يفيض من رزقه، أموال أو أسماك أو ثمار أو أغنام أو طيور، أو غيرها، ثم نصلي له ركوعًا، ثم ننصرف.
- هل رأيت أحدهم يخرج من بطنه بعينيك؟
- لا، ولكن رأى ذلك أجدادنا، فمن يخرج من بطنه يكون قديسًا من الكهنة.
فُتِح الباب ليدخل القائد محمود ممسكًا بالكشوف المطلوبة، ثم جلس مجاورًا لعدنان الذي توجه لابن الحارس متسائلًا:

وهل كل كهنة ياسوئيل خرجوا من بطنه عبر تدفق المياه كما ذكرت؟
- نعم بالطبع، هم قديسون.
- لكنك لم ترَ هذا بعينيك، أليس كذلك؟
- لا، لم أرَ بعينيّ، بوابة ياسوئيل مغلقة على الكهنة فقط.
ليرد سالم قائلًا:

أريد أن التقي زعماء الكهنة.
- كما تحب سيدي، سأخبرهم، ثم أنبئك بالموعد.
- تستطيع أن تنبئ كارول بالموعد،

ثم استدعى سالم كارول ليأمره باستدعاء المسئولين عن التواصل مع أهل الجزيرة للتنسيق مع ابن الحارس لموعد مع زعماء الكهنة.
نزل بنيامين وهاكوب وكمال الدين إلى فناء القلعة؛ بحثًا عن المطبخ ليخبرهم الطهاة بأن الطعام سيتم تجهيزه في غضون ساعة، أخبر كمال الدين رفاقه بأنه سيخرج في جولة بأرض نيبو، ثم امتطى أحد الجياد خارجًا من بوابتها، وانطلق تجاه النهر المجدول، حيث جمال الطبيعة ونسائم الأزهار ومساحات الأراضي الخضراء الشاسعة، نزل عن جواده عندما رأى أحد الفلاحين يجلس بأرضه، وأمامه طبق ممتلئ بفاكهة لم يرها من قبل، ليقترب منه متسائلًا باللغة التركية:

ماذا تأكل يا رجل؟
ليرد الرجل:

مرحبًا سيدي تفضل.
جلس كمال الدين بجواره، ليمد له الرجل يده بإحدى الثمار ليتناولها كمال الدين التهامًا، ثم مد يده ليتناول الثانية ثم الثالثة فالرابعة، نظر له الرجل في دهشة متسائلًا:

هل أنت متزوج يا سيدي؟
ليُجيبه:

لا.
- إذن لماذا تأكل النعانق؟
- أي نعانق؟
- هذه الثمار، اسمها النعانق.
- وما علاقة ذلك إن كنت متزوجًا أم لا؟
- هي ثمار للمتزوجين فقط.

- أهاااا، ثمار تزيد الطاقة والقوة.
- لا يا سيدي إنها تُميت الذكورة والرغبة عند الرجال.
نطر له كمال الدين نظرة بلهاء، بينما يمتلئ فمه بالنعانق ثم نهض ليبصق ما في فمه مُسرعًا، ثم سأله صائحًا: ولماذا تأكل منها أيها الأحمق؟
- لأن لديّ من الأبناء خمسة، ولا أريد أن أنجب طفلًا آخر، فأنا بالكاد أستطيع تحمل نفقاتهم، وأكل النعانق يُفقدنا أي رغبة تجاه النساء، فلا ننجب أطفالًا آخرين.
- وهل يفعل هذا كل الرجال الذين لا يُريدون إنجاب الأطفال؟
- نعم.
- وهل تفقد الرغبة عندما تأكلها مباشرة؟
- بالطبع لا، يجب أن تواصل تناولها يوميًا لخمسة أو ستة أشهر.
صاح كمال الدين قائلًا: كان الله في عون نسائكم يا جزيرة المجانين.
ترك كمال الدين الرجل ليمتطي صهوة جواده اقترابًا من النهر، ثم غسل فمه بمياهه من أثر النعانق، ثم انطلق عائدًا إلى القلعة.
ما إن دخل كمال الدين من بوابة القلعة حتى وجد بنيامين وهاكوب وبعض الرفاق وقد اجتمعوا يتناولون الطعام، نزل عن جواده ليقترب منهم مهرولًا، وما إن رأى ما يأكلونه حتى صاح بأعلى صوته:

ماذا تأكلون يا أشباه الرجال؟ بالله أني أشعر بأني سأراكم غدًا وقد تبدلت تضاريس أجسادكم.
نظر إليه بنيامين قائلًا:

ماذا بك يا رجل؟ اجلس لتأكل من هذه الفاكهة حتى ينتهي الطهاة من إعداد الطعام، والله إنها لذيذٌ طعمها.
جهر كمال الدين بصوته قائلًا:

إنها ثمار تميت الذكورة عند الرجال وتفقدكم الرغبة والقدرة.
ليرد هاكوب:

من قال لك ذلك؟
- أحد الفلاحين أخبرني بعد أن تناولت الكثير منها.
- نظر إليه عبيد بن الحارس والذي كان يجلس بينهم ليقول ضاحكًا:

يبدو أنك أكلت الكثير من ثمار النعانق.
نظر إليه كمال الدين بينما يتحسس جسده بيديه قائلًا:

هل ظهر على جسدي أي تغيير.
- لا، ولكن أصبح وجهك أكثر جمالًا ونعومة.
هرول كمال الدين تجاه إحدى المرايا الموجودة بأحد أركان القلعة يتحسس وجهه بيديه، بينما ظل الرفاق ينظرون إليه ضاحكين ليعود إليهم مرة أخرى، وقد ارتسمت على وجهه علامات الغضب قائلًا:

لعنة الله على هذا الرجل اللئيم البخيل، كان يكذب، أليس كذلك؟
ليرد ابن الحارس ضاحكًا:

بالطبع سيدي كان يكذب، يبدو أنه شعر بأنك ستلتهم كل ما جمعه من ثمار، اجلس لتأكل وكُن مطمئنًا.
في صباح اليوم التالي امتطى سالم صهوة جواده، يرافقه عدنان متجولين في ربوع الجزيرة، والتي كان أهلها يمتازون بالطيبة والبساطة، كانوا يعملون بصيد الأسماك وزراعة الحبوب والبقول والفاكهة بخلاف أعمال النجارة والحدادة وتجارة الملابس والأقمشة وصناعة النعال ومراكب وسفن الصيد وأدواته، وكانوا يتخذون من جذوع الأشجار والنباتات الجافة والجبال والكهوف بيوتًا آمنين، وكانوا يُصرون على الحِنث العظيم باتخاذهم وثن ياسوئيل إلهًا مقدسًا، فيظلون له عاكفين محاولين الفوز برضاه بتقديم

القرابين.
كان كهنة ياسوئيل يقبعون خلف بوابة ذات أسوار عالية مصنوعة من الأخشاب والحديد والأحجار تحجب الرؤية عما وراءها، يخرجون يوم الخميس مساءً من باب صغير في الجهة اليسرى من المصراع الأيسر للبوابة الكبيرة لتلقي القرابين من أهل الجزيرة.
كان العمل للرجال والشباب والشيوخ، بينما كانت النساء يراعين الأبناء ويأتين لأزواجهن بالطعام في أوقات راحتهم، كانت لغتهم الأساسية بلا أحرف، لا تُكتب ولا تُقرأ وكان أغلبهم يجيد اللغة التركية تحدثًا بحكم وجود العثمانيين منذ سنوات على أرض الجزيرة، كما كانت تعاملاتهم النقدية بالقروش العثمانية المصنوعة من النحاس، والتي تُصنع في دار لسك العملة مرفقة بالقلعة، بالإضافة إلى الأموال التي كانت ترسل من إسطنبول مع كل رحلة قادمة إلى الجزيرة، ثم جلسا بجوار النهر المجدول، حيث أصوات مُداعبة نسائم الأزهار لأوراق الأشجار التي تلقي بظلالها على الأرض الخضراء الذائبة في أصوات المياه التي تنهمر على تلك الصخور المصقولة بالجبال الخضراء، الممتزجة بعزف الطيور بديعة الألوان، مغرِّدةً على أوتار السماء.
عاد سالم وعدنان إلى القلعة ثم اتجه سالم لمكتبه منفردًا ليجد قاسم «خازندار بيت المال» في انتظاره ليأذن له بالدخول، وما إن جلسوا حتى دخل كارول يخبره بأن ابن حارس حدد موعدًا مع مازر بن صلهوب زعيم كهنة ياسوئيل، وما إن سمع قاسم اسمه حتى تبدلت ملامحه قائلًا:

مازر بن صلهوب، هذا ليس اسم بشر، هو من أسماء الجن.
ليرد سالم مبتسمًا:

- هل لك أصدقاء من الجن يا قاسم؟
- بالطبع لا سيد سالم، ولكن قرأت بعض الكتب في هذا الأمر.

وجه سالم حديثه إلى كارول قائلًا: متى الموعد؟
ليرد:

سيأتي إلى القلعة غدًا بعد غروب الشمس.
- أخبر عدنان ومحمود وهاكوب وبنيامين وكمال الدين وعبيد بن الحارس ليكونوا حاضرين، ثم وجه حديثه لقاسم:

وأنت أيضًا يا قاسم ستكون حاضرًا.
بعد مغادرة كارول للمكتب، وجه قاسم حديثه لسالم قائلًا:

لقد قمت بجرد الأموال والذهب ومقارنة الموجود بالمقيد في الكشوف هو مطابق تقريبًا، ولكن هناك صندوق صغير به الكثير من الألماس غير مقيد بالكشوف.
- ألماس؟
- نعم، ألماس.
- أمر غريب، وفي اعتقادك لماذا هو غير مقيد بالكشوف؟
- لأحد سببين، الأول أن يكون قد تم نسيانه والثاني وهو الأقرب للصواب أن الدولة العثمانية لا تعلم عنه شيئًا وأنه يخص قادة القلعة.
- ولكن من أين أتى قادة القلعة بهذا الألماس ولماذا لم يأخذه خالد بك معه حين غادر؟
- شخص واحد فقط سيد سالم هو من يملك إجابة هذا السؤال.
- خليل بك.
- بالطبع خليل بك.
- اذهب أنت الآن يا قاسم، وأخبر القائد محمود بأن يشدد الحراسة على بيت المال، ولا تخبر أحدًا بأمر الألماس، وأنبئ سليمان بما دار بيننا فهو نائبك، ويجب أن يعلم بمثل هذه الأمور.
بعد انصراف قاسم استدعى سالم نائبه عدنان، وأخبره بأمر الألماس وما دار

بينه وبين قاسم.
فُتحت أبواب القلعة عند غروب شمس اليوم التالي، لاستقبال مازر بن صلهوب زعيم كهنة ياسوئيل، وكان في العقد السادس من عمره طويل القامة أسمر البشرة نحيف البدن، ذا شعر أبيض طويل، كثيف الشارب واللحية والحاجبين، تكاد لا تظهر ملامح وجهه، مما يغطيه من شعر رأسه ولحيته وشاربه، حافي القدمين عاري الصدر والبطن، يستر الجزء السفلي من جسده بقطعة من القماش الأسود، تلتف حول خصره حتى أصابع قدميه، مُمسكًا بيده اليسرى عصا قديمة، يرافقه أربعة من الكهنة بنفس هيئته مع اختلاف أعمارهم وأحجام أبدانهم.
وقف سالم مستقبلًا زعيم الكهنة على بوابة القلعة، برفقة مجموعة العشرة ليغلق باب المكتب، بعد أن جلس وفد الكهنة ومن حددهم سالم من رفاقه للحضور.
وجه سالم حديثه لمازر قائلًا:

مرحبًا بك في القلعة سيد مازر، أنا سالم قائد القلعة.
نظر إليه زعيم الكهنة بملامح متجمدة ثم نطق بعض الكلمات بلغة أهل الجزيرة.
نظر سالم إلى عبيد ابن الحارس قائلًا: ترجم لي ما يقول.
ليقول ابن الحارس:

هو يتساءل، أين السيد خليل؟
ليرد سالم:

قتلته بيدي، لأصبح أنا قائد القلعة، وأريد أن أعلمك أن لقاءنا للتعارف والتعاون وطمأنة بعضنا بعضًا أن الأمور ستسير كما كانت، بل إني أرغب في أن تكون أفضل مما كانت، لا مساس بمقدساتكم ومعبدكم ومعتقداتكم.
ليقاطعه مازر قائلًا بالتركية:

ولا مساس بأرضنا.
- ماذا تقصد؟
- كل الأراضي الصالحة للزراعة وما يرعى فوقها من ماشية وأغنام ودواجن هي ملك للكهنة، وجميع سفن ومراكب الصيد هي ملك للكهنة، لا يملك أهل الجزيرة شيئًا، هم فقط يعملون فيما نملك، ويتقاضون أجرهم من نبت الأرض ورزق الماء.
مد سالم يده مصافحًا إياه قائلًا:

اتفقنا سيد مازر، لا مساس بما تملكون ليمد مازر يده مصافحًا، ثم استدعى كارول ليعد مأدبة طعام فاخرة، وبعد انتهاء طعامهم غادروا القلعة إلى معبدهم عائدين.
جلس سالم على طاولة الاجتماعات بمكتبه، بعد أن استدعى من غاب عن لقائه بالكهنة من مجموعة العشرة، ليخبرهم بما تم خلال الاجتماع وما تم الاتفاق عليه.
بدأ عدنان حديثه قائلًا:

لا يجب الاستهانة بالكهنة، فهم يخفون في جعبتهم الكثير من الأوراق، وأرى أن الاتفاق مناسب في الوقت الحالي.
ليرد محمود:

أرى أن هذا الاجتماع هو اعتراف منا بأنهم أصحاب الأرض، وأننا مجرد ضيوف لا نملك من أمرنا شيئًا، كان يجب أن نعلمهم مدى قوتنا، وأننا إن أردنا أن نملك الجزيرة سنملكها لا محالة.
ليقول رشوان:

يجب ألا نتسرع في التلويح بالقوة، فنحن لا نعلم مدى قوتهم.
ليقاطعهم سالم متسائلًا:

هل لدى أحدكم خُطة لما هو قادم؟
ليرد قاسم:

لديّ فكرة وليست خطة، لدينا من الأموال والذهب ما يكفي لصناعة سفن ومراكب للصيد، نستطيع أن نبني أسطولًا من سفن الصيد.
ليقول القائد محمود:

ونستطيع أن نستخدم هذه السفن أيضًا كقطع بحرية حربية إذا ما تعرضنا لأي هجوم.
وجه بنيامين حديثه لسالم قائلًا: لاحظت قوله، أن كل الأراضي الصالحة للزراعة فقط هي ما يملكونها، بما يعني أنه يمكننا استصلاح الأراضي البعيدة عن النهر المجدول، وأن نحاول إيصال الماء العذب إليها باستخدام الشواديف، وإنشاء القناطر من خلال أنابيب يمر عبرها الماء العذب إلى الأراضي البعيدة والمرتفعة.
ليتساءل سالم:

وهل لدينا من الرجال ما يكفي لمثل هذه الأعمال؟
ليرد كمال الدين:

نستطيع تشغيل أهل الجزيرة، وإعطاءهم من الأجر ما يكفيهم ويزيد، عما يتقاضونه من الكهنة.
ليرد عبد الله:

لدينا مَن هم ذوو خبرات في الزراعة والصناعة، والتجارة والطب والكيمياء والهندسة بين السجناء المفرج عنهم، ولكنهم ليسوا بالكثير عددهم .
نظر إليهم سالم متسائلًا:

هل من رأي آخر؟
ليصمت الجميع ثم أردف قائلًا:

كل ما قيل رائع وسنبدأ في اتخاذ ما يلزم من إجراءات لتنفيذه فور إنهاء اجتماعنا، ولكني أنظر لأمر أكبر من ذلك، أنظر إلى تأسيس مملكة نيبو، لتكون دولة ذات سيادة لها حكومتها وحدودها وعلمها وسفاراتها وسفراؤها ووزراؤها، ولديّ خطة لذلك أريد أن أستمع إلى رأيكم بها، سنرسل إحدى السفن الراسية على شواطئنا مُحملة بأطنان من الغذاء إلى بعض الدول الضعيفة المتضررة من الحرب في أوروبا، ونستقطب من يريد اللجوء إلينا، وتكون الأولوية لأصحاب الخبرات التي تنقصنا ونبرم بعض الاتفاقات مع حكوماتها للاعتراف بمملكة نيبو، وتبادل إنشاء السفارات بيننا، ونبرم بعض التعاقدات لشراء سلاح متطور للدفاع عن أرضنا، فسماسرة السلاح في أوروبا الآن أكثر من تجار المواد الغذائية.
ليرد عبد الله:

ولمَ لا نرسل الثلاث سفن إلى ثلاث دول بالتوازي استفادة من ظروف الحرب، ونقص الغذاء الذي يضرب أوروبا؟
ليجيبه محمود:

وماذا إن هاجمنا العثمانيون؟ ما زلنا لا نعلم ردة فعلهم وكيف يفكرون.
ليقول سليمان:

إذًا أقترح تأخير فكرة السيد سالم حتى يستقر بنا الأمر بالجزيرة ويصبح لدينا العديد من السفن.
ليرد سالم:

وما المانع أن نرسل سفينة واحدة لتكتسب الخبرات في التعامل مع مثل هذه الأمور، ولتكن على سبيل التجربة، فستستغرق هذه الرحلة عدة شهور ذهابًا وعودة، نكون في خلالها استطعنا أن نبني أسطولًا من السفن ولدينا من المحاصيل ما يكفي لرحلات أخرى بعد استصلاح الأراضي.
وافقت مجموعة العشرة على اقتراح سالم، بالإضافة إلى ما تم اقتراحه من باقي الرفاق، بعد أن حذرهم سالم من خطورة تسريب ما تم الاتفاق عليه في اجتماعهم، وأن يتم العمل في صمت دون الحديث عن أي تفاصيل.
تم تصميم أول علَم لمملكة نيبو، كان سماوي اللون كرمز للمحيط في وسطه دائرة خضراء ترمز للجزيرة، ليتم تثبيته خفاقًا على عدة سوارٍ تم تثبيتها على الأبراج، وتم استخراج بطاقات هُوية لكل من هم في القلعة .
بدأ تواصل هاكوب وبنيامين وكمال الدين مع أهالي الجزيرة ممن لديهم الخبرات اللازمة في أعمال الزراعة وتصنيع السفن، وبعد بضعة أسابيع بدأ وضع الشواديف وإنشاء القناطر للعديد من الأراضي المرتفعة والبعيدة عن النهر، واتجهت السفينة مبحرة يخفق فوق ساريها أول علَم لمملكة نيبو بقيادة عدنان، يرافقه أحد ضباط البحرية الذين كانوا على متن السفينة التي أقلتهم من إسطنبول بعد أن تم تحريره، وبعض أصحاب الخبرات من المساجين المفرج عنهم مؤخرًا.
بدأ القائد محمود في إعداد جيش للدفاع عن وطنهم الجديد، بما توافر لديه من إمكانات محدودة، بإنشاء المعسكرات لتدريب الشباب على استخدام الأسلحة المتنوعة، وركوب الخيل وغيرها من المهارات القتالية، وأنشئت الأبراج، وصنعت العربات الحديدية والخشبية التي تجرها الخيول، وتابع بناء السفن والزواق ونصب المجانيق، ونشر نقاط الدفاع على حدود الجزيرة.
تم تعيين أحد كبار المعلمين من المساجين المفرج عنهم كناظر للتعليم، وقام بالتنسيق مع قاسم وسليمان ناظري بيت المال لإنشاء المداس لتعليم

الأطفال في أماكن متفرقة، بعد أن تم ترسيم حدود نيبو، وتقسيمها إلى أربع ولايات «هيكاريا العاصمة، التي كانت مقرًا لقلعة الحُكم، وشبيب، وبرينيا» وهي أسماء لكبار زعماء القبائل بتلك الولايات، بالإضافة لولاية ياسوئيل، حيث معبدهم المقدس.
مرت الشهور، حيث يجري العمل على قدم وساق ليطرق كاورل باب المكتب، فيأذن له سالم بالدخول، ليدخل متجهم الوجه، وقد ارتسمت ملامحه ببعض الهَمّ والحزن، نهض سالم متسائلًا:

ماذا بك يا كارول؟

ليرد كارول: هناك حالة من الشوق بين الرجال للعودة لأوطانهم ورؤية ذويهم.
- أنا أيضًا أتوق لعائلتي، ولكن أخبرني عن طريقة آمنة للعودة، أخبرت الجميع بأني لا أمانع أن يعود من يعود، عليهم فقط أن يخبروني بخطتهم للعودة ثم يختاروا إحدى السفن ولتصحبهم السلامة، أخبر الجميع يا كارول أنه كلما أسرعنا في بناء مملكتنا أصبح من السهل أن نستقدم ذوينا ليصبحوا رفقاءنا في نيبو وطننا الجديد، تتحقق الأحلام بالكد والعمل وبعض المجازفة، وليس بالأماني والاشتياق والحنين.
أومأ كارول برأسه إيجابًا وقد امتلأت مقلتاه بالدموع ليحتضنه سالم بقوة قائلًا:

قريبًا جدًا يا صديقي بمشيئة الله.

طرق الباب ليدخل أحد ضباط القلعة قائلًا:

سيد سالم، تسلمت أول برقية بعد إصلاح أعطال التليغراف.

ليرد سالم مبتسمًا:

مَن المرسل؟
ردّ الضابط قائلًا:

اقتربت سفينة السيد عدنان من شواطئ نيبو، سيصل في غضون ساعات قليلة، بمشيئة الله.
نظر كارول وقد تبدلت ملامحه للابتسام قائلًا:

حمدًا للرب على سلامته.
ليرد سالم:

والله إني أتوق لرؤيته، أكثر مما اشتاق لعائلتي.
رست السفينة على شواطئ نيبو، وقد امتلأت باللاجئين من أوروبا لينزل عدنان، ليجد سالم ورفاقه في استقباله ثم اتجهوا إلى مكتب القيادة.
بدأ عدنان حديثه بحماس وسعادة قائلًا: أبحرنا دون اتخاذ قرار بالاتجاه لدولة محددة، ليشير أحد الضباط بالتوجه إلى الشواطئ البرتغالية، لأنها الأقرب لنا فوافقت، وما إن اقتربنا من السواحل البرتغالية حتى تفاجأنا ببعض السفن الحربية البريطانية تعترض تقدمنا، أخبرتهم بأننا قادمون ببعض المواد الغذائية لمساعدة المدنيين في تخطى الأزمة، ولا شأن لنا بتلك الحرب.

سألونا عن وجهتنا فأخبرناهم بأنها للبرتغال، ولحسن حظنا أنها من دول الحياد ليصعد بعض ضباطهم وجنودهم للتأكد من أن السفينة لا تحمل أسلحة، ثم سمحوا لنا بمواصلة التقدم، ما إن وصلنا حتى استقبلنا مسئول الميناء الذي قام بالاتصال بأحد المسئولين، ليسهل لنا إجراءات مهمتنا، أتانا الكثير طلبًا للجوء اخترت معظمهم من المُعلمين، ثم بعض الأطباء والكيميائيين ومهندسي المعمار والكهرباء والزراعة وبعض خبراء الصناعة والتجارة وقدامى العسكريين والأقوياء من العامة، ثم قمت بشراء

العديد من مضخات المياه وآلات الحرث والحصاد، ليقاطعه القائد محمود متسائلًا:

والسلاح؟
ليرد عدنا:

توصلت إلى الكثير من سماسرة السلاح، ولكني لم أشعر بأمان عودتنا في ظل انتشار القطع الحربية البريطانية، سأخبرك بما تم في هذا الشأن باجتماع مغلق.
ليقاطعهم سالم قائلًا:

أكمل يا عدنان.
ليواصل حديثه:

ثم انطلقنا من البرتغال إلى إسبانيا بعد أن علمنا أنها أيضًا من دول الحياد وأبلينا بلاءً حسنًا، وها قد عدنا سالمين بحمد الله.
وجه سالم حديثه لعدنان قائلًا:

أريد أن أحدثك على انفراد.
هم الرفاق بالاستئذان للانصراف ليبدأ سالم حديثه:

أريدك في أمر غاية في السرية.
ما الأمر؟
أريدك أن تنشئ جيشًا موازيًا تحت قيادتك بمساعدة من جاء معك من العسكريين، وأن تتخذوا من الجزر الصغيرة المترامية على أطراف حدودنا أماكن للتدريب، واحرص على ألا يعلم أي إنسان على أرض نيبو بهذا الأمر إلا من ينتمون إلى هذا الجيش.
- ألن تخبر القائد محمود؟

- لا محمود ولا أي شخص؟
- تمام، سأبدأ من الغد بمشيئة الله؟
في صباح اليوم التالي، اجتمع سالم وعدنان مع القائد لويس جوميز، أحد قدامي العسكريين البرتغاليين، لوضع اللمسات الأولى والأهداف الأساسية وأماكن التدريب للجيش الموازي، وتم استدعاء قاسم وسليمان بعد انتهاء الاجتماع، حيث صدرت لهم الأوامر بتوفير كل ما يطلبه عدنان من أموال دون السؤال عن جهة صرف تلك الأموال.

مملكة نيبو
1922م

تم الإعلان عن مملكة نيبو رسميًا في ديسمبر 1918م بعد انتهاء الحرب العالمية، ليسطر التاريخ في صفحاته ميلاد مملكة الجنة الوليدة على يد مؤسسها الملك سالم بن العابد، بعد أن استثمر ورفاقه ظروف الحرب لتوطيد علاقاته بدول الحياد، وانطلقت السفن بالبضائع المتنوعة إلى أوروبا وبعض دول أمريكا اللاتينية وشمال وغرب إفريقيا، ونزح إلى أرضها العديد من المهاجرين من جنوب وغرب أوروبا وشمال إفريقيا، وغربها وكانت تصل إليهم السفن المهربة المحملة بالسلاح المتطور من أوروبا بعد أن أبرم معهم الوزير الأول للمملكة عدنان بن الظافر عدة اتفاقيات تؤمّن وصول السلاح بأمان إلى المملكة، دون أدنى مسئولية على حكومتها، مقابل الألماس الذي كان يُستخرج من مستنقعات روافد النهر المجدول، وبحلول عام 1922م وسقوط الخلافة العثمانية، سقطت كل الدلائل على وجود ما كان يسمى سجن الجزيرة.

رست الباخرة العائدة من إسطنبول التي كان على متنها القائد محمود وكمال الدين، وسليمان وعبد الله والكثير من رجال القلعة ممن أفرج عنهم منذ أعوام، برفقة عائلاتهم قادمين إلى وطنهم الجديد، ليكن في استقبالهم باقي الرفاق، وقد أعدوا حقائبهم للمغادرة لاستقدام عائلاتهم، ما إن وصلوا حتى استقبلهم الملك وذووهم بقاعة الضيافة في قلعة الحكم وقد أعد لهم حفل استقبال مهيبًا يليق بطول فترة الانتظار، وما عانوه من ألم الفراق.

ما إن انتهى الحفل حتى توجهوا لمنزل الوزير الأول عدنان بن الظافر

لتهنئته بزفافه الذي تم منذ أيام على إحدى فتيات نيبو التي أصبحت أرضًا للحرية والتعاون والعدل والعلم والإخاء والرخاء، كانت تصدح المآذن بالأذان فيتجه المسلمون إليها للصلاة، وتمتلئ الكنائس عندما تدق أجراسها، ويلبي اليهود نداء المعابد عند نفخ أبواقها، كما كانت تقدم القرابين لكهنة معبد ياسوئيل مساء الخميس من كل أسبوع.

يستيقظ الرجال والشباب مبكرًا للذهاب لعملهم، ويتجه الأطفال إلى مدارسهم، والنساء إلى الأسواق لتوفير احتياجات منازلهن، ورغم استيراد بعض السيارات فإن سالم لم يكن يهوى قيادتها، بل كان عاشقًا للخيل، وكان كثيرًا ما يمتطي صهوة جواده متجولًا بين المنازل للاطمئنان على أحوال أبناء شعبه، وسماع شكاواهم والرد على استفساراتهم، كما كان الوزير الأول وباقي نُظار المملكة دائمي الوجود بميادين العمل المتنوعة للإشراف على ما يتم إنجازه من عمل، والتأكد من إتمامه على الوجه الأكمل.
مشى كمال الدين برفقة صديقه بنيامين عائدين إلى منزليهما المتجاورين، بعد أن قدما التهنئة لعدنان بزفافه ليقول كمال الدين متسائلًا:

لماذا لم تتزوج يا بنيامين؟ ليرد قائلًا:

لا أحب الفقر يا صديقي.
- وما العلاقة؟
- النساء يحببن المال، والرجال يحبون النساء، وكلما ازداد حبك للنساء ازداد إنفاقك للمال لإرضائهن، أي كلما ازددت لهم حبًا، ازددت فقرًا، العلاقة طردية يا صديقي.
ليرد كمال الدين ضاحكًا:

لا تتوانى في إثبات أنك يهودي يا بنيامين.

مملكة نيبو
1923م

طرق الباب ليدخل السيد كارول ببرقية تنبئ باقتراب رسو إحدى السفن بميناء هيكاريا قادمة من الغرب، على متنها مستر «جاك روتيلد» وهو رئيس لأحد بنوك التسليف الدولية، يرافقه وفد رفيع المستوى، راغبًا في تحديد موعد للقاء الملك؛ ليوجه بحسن الاستقبال والضيافة وتحديد موعد في أقرب وقت، وإخطار الوزير الأول والقائد محمود وناظر الشئون الاقتصادية وناظر الخارجية بالموعد للحضور، ثم أمر باستدعاء رئيس المخابرات للحصول على المعلومات الكافية عن الضيف ومرافقيه.
وصل الضيف إلى قلعة الحكم، وكان في استقباله ناظر الخارجية، ليخبره بأنه سيلقى الملك بعد يومين في الثامنة صباحًا ليخبره مستر روتيلد بأنه يرغب في القيام بجولة في هيكاريا بعد ساعتين، ليتم تجهيز إحدى السيارات برفقة سائق وأحد ضباط الحراسة، ليستقلها الضيف في جولته بمعالم العاصمة.
بعد مرور اليومين، دلف مستر روتيلد والوفد المرافق إلى إحدى قاعات الاستقبال، ليصافحهم الملك ومرافقوه مبتسمين مرحبين.
ثم بدأ الضيف حديثه قائلًا:

لي عظيم الشرف أن ألتقي جلالتك، انتظرت هذا اللقاء طويلًا، وأبلغك تحياتي وتحيات حكومة بلادي على ما بذلتموه من جهد لنمو وتقدم مملكتكم العظيمة.
ليرد الملك:

لم أفعل إلا ما يجب أن أفعله تجاه وطني.
- أعلم أن وقت جلالتك محدود، لذا سأبدأ في طرح ما قدمت من أجله مباشرة، تعلم بالطبع أني رئيس لأحد أكبر بنوك التسليف الدولي بالعالم، نستهدف البلدان الناهضة الواعدة لنتعاون كي نزيد من نموها، ونساعد على ارتفاع مستوى معيشة شعوبها وزيادة الإيرادات والصادرات على أساس المنفعة المتبادلة، جئت إليكم بعرض لا يمكنكم رفضه على الإطلاق، سنوفر لحكومتكم سيولة نقدية بقيمة عشرة ملايين دولار، تسدد على عشر سنوات، لتنفيذ عدد من المشروعات التي تمت دراسة جدواها بدقة، والتي ستدر ربحًا وفيرًا على مملكتكم، وسنكون شركاء لكم في هذه المشروعات، لنا نصيبنا من الأرباح كما سيتم الاتفاق بيننا، وأريد أن أخبر جلالتكم بأمر هام هو أنه في حال إتمام الاتفاق سيكون لكم بصفة شخصية عمولة عن إتمام الصفقة تقدر بخمس مئة ألف دولار لجلالتكم ومثلها لباقي أعضاء حكومتكم.
ابتسم له الملك متسائلًا:

هل تذوقتم ثمار النعانق؟
نظر له عدنان مستغربًا محاولًا كتم ضحكاته، لينظر إليه الملك قائلًا:

مُر بإحضار بعض من ثمار النعانق للضيوف.
ثم وجه حديثه لمستر روتيلد:

هي من أجمل وأحلى الثمار مذاقًا بمملكة نيبو.
ليرد روتيلد:

يبدو أن جلالة الملك لديه تعقيب على ما أوضحته.
ليرد الملك:

وبالطبع سيتم رد هذا القرض مضافًا إليه قيمة الفائدة.
- بالطبع سيدي
- إذًا تعطونا المال لننشئ به مشروعات أنتم من اخترتموها لنا، ثم تصبحون شركاءً لنا في هذه المشروعات، ثم نرد المال مضافًا إليه قيمة الفائدة، أليس كذلك؟
- بلى سيدي.
طرق الباب ليدخل بعض الأفراد حاملين أطباق ثمار النعانق ليضعوها أمام الضيوف، وما إن انصرفوا حتى وجه الملك حديثه لمستر روتيلد قائلًا: أولًا تأكلون النعانق، ثانيًا سلِّم دراسات جدوى تلك المشروعات للسيد ناظر الشئون الاقتصادية لدراستها، ويشرفنا ضيافتكم في بلدكم الثاني حتى ننتهي من دراسة الأمر ومناقشته، وإخباركم بالقرار النهائي.
ما إن انصرف روتيلد حتى وجه الملك حديثه إلى ناظر الاقتصاد:

أريد مراجعة هذه المشروعات في أسرع وقت وإبداء الرأي فيها، وفي جدوى العرض برمته.

خرج الملك مساءً كعادته ممتطى جواده، لتفقد أحوال الرعية منفردًا، وما أن ابتعد عن القلعة حتى تذكر أنه نسي حقيبته التي تضم سلاحه الشخصي، وبعض الأوراق والأقلام لتدوين ملاحظاته، فأدار وجهة جواده للقلعة، وعند اقترابه لاحظ خروج مستر روتيلد مُمسكًا بلجام أحد الجياد خارجًا من البوابة، ثم امتطى الجواد وانطلق، تعجب سالم لخروجه من القلعة على صهوة جواد وتركه للسيارة المخصصة له، ليقرر الملك تتبعه.

انطلق روتيلد باتجاه مقاطعة ياسوئيل يتبعه سالم بحذر، حتى وصل إلى بوابة ياسوئيل بعد ما يقرب من الساعة، فنزل عن جواده واقترب من المعبد طارقًا بابه.

انطلق سالم بجواده حتى وصل إلى نهاية السور الأيمن للمعبد، والذي يلتصق بتلٍ بنفس ارتفاع السور تقريبًا، نزل عن جواده متسلقًا للتل حتى وصل لقمته، فذهلت عيناه عندما رأى وثن ياسوئيل الذي يصل طوله إلى ما يقرب من خمسة عشر مترًا، ويكاد يبلغ عرضه السبعة أمتار، صنع من تعاشق الأخشاب والحديد والأحجار، له رأسان إحداهما لذكر على اليمين والأخرى لأنثى على اليسار، النصف الأيمن لجسده لذكر والنصف الأيسر لأنثى يتوسط بطنه فتحه دائرية لا تُظهر ما وراءها تغطيها بعض النباتات الخضراء تحيطه على الأرض نصف دائرة من اللهب المشتعل، تنتهي أطرافها عند التلال التي يستند إليها ظهر الوثن.

اقترب مستر روتيلد من الوثن بخطوات متباطئة، وما إن وصل إلى حدود دائرة اللهب حتى جثا على ركبتيه راكعًا لياسوئيل، ثم وضع كفيه على الأرض ونكس رأسه، وكأنه حيوان خاضع من ذوات الأربع، وما هي إلا دقائق حتى خرج مازر بن صلهوب زعيم الكهنة، ليتخذ نفس وضعية الركوع بجوار روتيلد أمام الوثن، ثم نهضا يتعانقان كصديقين تقابلا بعد فراق، ليتجها إلى أحد الكهوف المجاورة لوثن ياسوئيل، جلس سالم مستندًا بظهره إلى أحجار التل، يرتسم وجهه بملامح الدهشة مما رأى، يجول بعقله آلاف التساؤلات بلا إجابة.

بدأت شمس النهار تضيء أرجاء الجزيرة ليخرج روتيلد بصحبة زعيم الكهنة متجهين إلى باب المعبد، وما إن فتح الباب حتى دوى بأرجاء المعبد صوت، وكأنه خرير ماء لشلال ينهمر، فزع سالم من شدة الصوت وارتعدت فرائص كل من في المعبد وما هي إلا ثوان حتى أصاب الهلع الجميع، عندما تدفق شلال مياه من تلك الفتحة الدائرية ببطن الوثن، أطفأ ما حوله من نار متقدة، وذهلوا بعد انحسار المياه، وظهور فتاة في أرض المعبد، ليقف الكهنة في ذهول ودهشة حول الفتاة التي كانت تبدو في العقد الثاني من عمرها، بيضاء البشرة، ذات شعر أسود، يصل طوله إلى شحمتي أذنيها،

ترتدي سروالًا أسود وقميصًا أبيض وكانت ملابس غريبة بعض الشيء في هذا الزمان، البعض يركع أمامها والبعض يسجد لها وآخرون يحاولون لمسها بأيديهم، وقفت الفتاة مرتعبة تدور حول نفسها محاولة إبعاد جسدها عمن يحاولون لمسه بأيديهم، ليهرع الملك نازلًا إلى جواده منطلقًا تجاه باب المعبد، وما إن وصل حتى حاول الكهنة إغلاقه إلا أنه ضرب الباب بقدمه ليتفاجأ بجواده يمتنع عن الدخول خوفًا، فنزل عن جواده داخلًا إلى المعبد متقدمًا بخطى متزنة تجاه الفتاة التي تسمرت مكانها تسود ملامح وجهها الدهشة.

كان الملك طويل القامة حنطي البشرة ذا شعر أسود، يصل طوله إلى كتفيه، يزين وجهه شارب ولحية حالكة السواد، ناظرًا إليها بعينيه السوداوتين الواسعتين، لتبتسم له ابتسامة عريضة مهرولة تجاهه لتلقي بنفسها بين أحضانه قائلة:

حبيبي.. افتقدتك كثيرًا.
وضع الملك كفيه على كتفيها مُبعدًا جسدها عنه متسائلًا:

هل تعرفيني؟ هل التقينا من قبل؟
تبدلت ملامحها للذهول والاستغراب ثم نظرت حولها ببطء لتردف قائلة: أنقذني من هؤلاء، ثم سأفسر لك كل شيء.
أدار وجهه خارجًا ناظرًا إلى عيني روتيلد الذي نظر إليه مبتسمًا بخبث، ثم امتطي جواده، وأمسك بيدها لتجلس خلفه تحيطه بذراعيها تستند برأسها إلى ظهره، والذي كانت تضاريسه كجبل يحميها من أي أذى، ما إن وصل إلى حدود مقاطعة هيكاريا حتى وجد ضباط وجنود الحرس الملكي قد بدأوا بالانتشار، باحثين عنه لشعورهم بطول مدة غيابه غير المعتاد، أحاطه الحرس حتى وصل لأبواب القلعة لتفتح أبوابها، فنزل عن جواده، ثم حمل

الفتاة بين ذراعيه حتى وقفت على الأرض، ثم أمر جنوده بحسن ضيافتها بإحدى قاعات الضيافة، ثم نظر إليها قائلًا:

اطمئني، أنتِ الآن في أمان.
مشت بصحبة الجنود بينما لا تزال تنظر إليه بنظرات الشوق الممتزج بالدهشة مع السعادة، وظلت عيناه ترقبها حتى اختفت بين أروقة القلعة.
تفاجأ الملك بوقوف عدنان إلى جواره مبتسمًا ليهمس في أذنه قائلًا:

يبدو أن الملك لم يتأثر بأكل النعانق.
نظر إليه سالم وقد علا صوت ضحكته قائلًا:

والله إن ما رأيته اليوم لذو أثرٍ أقوى من أي نعانق.
ثم اتجها إلى المكتب ليقص له ما رآه بالمعبد ليعجز عدنان عن إبداء رأيه من أثر دهشته مما سمع، ليأمره الملك بكتم الأمر حتى تتكشف الحقائق.
استدعى الفتاة إلى مكتبه مساءً لتدخل وهي تنظر حولها بنفس نظرات الدهشة والذهول، وما إن جلست حتى التقت عيناها بعيني الملك مبتسمة، ولم تلحظ جلوس الوزير الأول بالكرسي المواجه لها، ليبادر الملك قائلًا:

أعرفكِ بالسيد عدنان بن الظافر الوزير الأول لمملكة نيبو، فزعت الفتاة ثم نهضت واقفة تنظر إلى عدنان بدهشة ثم قالت:

أنت الملك عدنان بن الظافر؟
نظر عدنان لسالم ثم رد قائلًا:

الملك؟!
وجه سالم حديثه إليها قائلًا:

قد يصبح ملكًا فيما بعد لكنه الآن الوزير الأول.
نظرت إليه قائلة:

إذًا أنت الملك المؤسس سالم بن العابد، لماذا كذبت عليّ؟ لماذا لم تخبرني بالحقيقة؟
نهض الملك جاهرًا بصوته:

أي كذب، وأي حقيقة؟ ماذا تقولين؟ هل تدّعين الجنون؟
لترد وقد تشابكت أصابعها وزاغت عيناها قائلة:

بالطبع أنت لا تعلم ما حدث، أقصد ما سيحدث.
نظر سالم إلى عدنان الذي ينظر إليها نظرة بلهاء لتردف قائلة: أريد أن أحدثك على انفراد يا سالم، إذا أذن لنا الملك عدنان بن الظافر.
ليرد عدنان:

لا، لن أتركه معكِ يا مجنونة.
نظر إليه سالم ضاحكًا ثم قال: لا تخشى عليّ، يمكنك الانصراف.
ليرد: حسنًا ولكني سأبقى في الجوار.
جلست بهدوء، ثم وضعت رأسها بين كفيها، وأجهشت بالبكاء.
اقترب منها ليجلس على الكرسي المقابل قائلًا:

قلتُ لكِ اطمئني تمامًا، أنتِ في أمان، وسأصدِّق كل ما تقولين.
رفعت رأسها وقد ملأ مقلتيها الدمع السائل على وجنتيها، مد سالم كفيه ليزيل أثر الدموع عن وجهها لتنظر في عينيه متسائلة:

في أي عام نحن؟
ليجيبها:

1923م.
قالت:

هل ستصدق ما سأقوله لك؟
- نعم، سأصدق.
قالت:

اسمي ولاء بنت الحامد، ولدت في مقاطعة هيكاريا عام 1985م.
استند سالم بظهره إلى مقعدة ناظرًا اليها باستغراب، لتنهض قائلة وقد علا صوتها:

قلت لك إنك لن تصدقني.
ليرد ضاحكًا:

أنا لم أنطق بكلمة!
- ولكن يبدو على وجهك وردّة فعلك أنك لا تصدقني.
ليرد بنبرة صوت هادئة:

اجلسي يا ولاء وأكملي حديثك.
- أين توقفت في حديثي؟
- لم تقولي شيئًا إلا أنكِ ولدت عام 1985.
- نعم، منذ عام تقريبًا التقيت شابًا يشبهك إلى حد التطابق، أحبني وأحببته كثيرًا وكنا نلتقي عند بئر بمقاطعة أسهيل في حي التلال الخضراء.
قاطعها سالم قائلًا:

تقصدين ياسوئيل.
- لا، أسهيل.. نعم، ياسوئيل، كانت مقاطعة ياسوئيل.
اعتدل سالم في جلسته، وقد تبدلت ملامحه قائلًا:

وماذا كنتم تفعلون عند البئر؟
- ماذا تقصد؟ لم نكن نفعل شيئًا، كنا نتحدث فقط.
- أكملي.
- تقابلنا أمس عند الغروب، أعطيته هاتفي الجوال ليلتقط لي بعض الصور في أثناء وقوفي على حافة البئر فزلّت قدماي ولم أشعر إلا ومياه البئر تغمرني، وما إن خارت قواي وشعرت بأني هالكة لا محالة إذ بمياه البئر تفور وترتفع لتلقي بي بجوار هذا الصنم المرعب وسط هؤلاء المجانين.
- لماذا وقفتِ على حافة البئر؟
- أخبرتك، لالتقاط بعض الصور عبر الهاتف.
نهض متجهًا إلى حائط مجاور للمكتب قائلًا:

انظري إلى هذا، هذا هو الهاتف الذي يعلق على الحائط ويتكون من سماعة المستقبل وعامود، ويتم من خلال العامود الاتصال مع مزود الخدمة الذي يحول المكالمة إلى الجهة المطلوبة، كيف يمكنه التقاط الصور الفوتوغرافية؟
وقفت ولاء قائلة:

يا جلالة الملك، ولدت عام 1985 وسقطت في البئر عام 2010 بما يعني أننا وصلنا إلى ما لا يمكنك تخيله من علم، لأنكم لا زلتم عام 1923، أريد أن أسألك سؤالًا.
- اسألي.
- هل لديكم حريم وحرملك في هذا الزمان؟
- تبسم الملك ضاحكًا ثم قال:

ما الهدف من هذا السؤال؟
- لا أريدك أن تتخيل أنك ستأمرهم بأخذي إلى الحرملك، ثم آتي اليك ليلًا لأرقص برفقة الحريم أمامك، وأنت تجلس على عرشك في قاعة كبيرة تتناول

الفاكهة، هذا لن يحدث.
ضحك قائلًا:

لا تخافي، لا يوجد حرملك، ثم نهض تجاه أحد أبواب المكتب ليفتحه محدثًا كارول، استدعي الوزير الأول وقائد حرس القلعة، ثم أغلق بابه عائدًا وظل ينظر إليها متعجبًا لتقول متسائلة: هل صدقتني؟
دخل الوزير الأول برفقة قائد الحرس ليقول الملك اجلس يا عدنان، ثم وجه حديثه لقائد الحرس قائلًا:

خذ هذه الفتاة وألقي بها في سجن القلعة.
وثبت في مكانها عدة مرات، وأخذت تصيح لا أريد أن أدخل السجن، لقد وعدتني بالأمان، سحبها القائد من ذراعها تجاه الباب لتصيح قائلة: لا مانع لدي أن أذهب للحرملك ولكن لا تأخذني إلى السجن لدي من الدلائل ما يثبت صدق حديثي.
ظلَّت تصيح حتى خرجت برفقة قائد الحرس ليسلِّمها لبعض الجنود مصطحبين إياها إلى السجن.
نظر سالم لعدنان قائلًا:

أظن أنها جاسوسة لكهنة ياسوئيل، استدع رئيس المخابرات.
خرج عدنان ليبلغ كارول باستدعاء رئيس المخابرات، وما إن دخل حتى خاطبه الملك قائلًا:

تواصل مع رجالنا بمعبد ياسوئيل، وأريد تقريرًا مفصلًا عما يدور في أروقة المعبد.
ثم نظر إلى عدنان قائلًا:

لا أستطيع أن أصدق ما قالت، رغم إحساسي أنها صادقة.
ليرد عدنان:

في رأيي إما أن تكون جاسوسة للكهنة أو مجنونة.
بعد نحو الساعة، أخبر كارول الملك بأن زعيم الكهنة بالخارج يريد مقابلته ليأذن الملك له بالدخول.
وما إن دخل حتى صافح الملك قائلًا: أبرمنا اتفاقًا منذ سنوات، وأظن أننا لم نخالف عهدنا، أطلق سراح الفتاة فهي كاهنة قديسة من بنات ياسوئيل.
نظر إليه قائلًا:

لو علمت أنها قديسة ما أخذتها من المعبد.
- نحن أعلم منك يا مولاي بشئون ديننا.
- وأنا أعلم منك بشئون المملكة وإدارة الدولة.
نهض مازر بن صلهوب واقفًا ثم قال: لا تستعدِي كهنة ياسوئيل يا مولاي فالأمر جد خطير.
- هل تهددني يا مازر؟
- بل أحذرك من العواقب.
- انتهت المقابلة، تستطيع الانصراف.
أدار زعيم الكهنة وجهه ثم اتجه نحو الباب خارجًا في صمت.
دخل عدنان متسائلًا:

ماذا يريد هذا الرجل؟
- يريدني أن أسلّم له الفتاة؟
- وما المانع، سلِّمها له.
- قبل أن أعلم كيف خرجت من بطن الوثن؟
- وما شأننا بهذا الأمر؟
- كيف لا يكون شأننا يا عدنان؟ نحن مسلمون نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وهجر الكثير من شعب نيبو عبادة الوثن، وآمنوا بالأديان السماوية وبنينا المساجد والكنائس والمعابد اليهودية، ونبني المدارس والجامعات

ونترجم آلاف الكتب، ليزداد الناس علمًا ثم بعد كل هذا تخرج فتاة من بطن ياسوئيل! عاجلًا أم آجلًا سيعلم الناس بما حدث، إن لم يكن لدينا تفسير يقبله العقل سيبدِّل الناس دينهم، ويعودون لعبادة ياسوئيل وتقديم القرابين ويصبح كاهن المعبد أقوى من الملك والحكومة والجيش، ونرجع مئات السنين للوراء، ويضيع كل ما أنجزنا.
صمت الوزير لثوان، ثم رد قائلًا:

إن أعدنا الفتاة إلى المعبد في صمت وهدوء، انتهى الأمر وستصبح ضمن الآلاف من الكهنة ولن يصدق المؤمنون من الناس ما سيقال حول خروجها من بطن الوثن، أما إن افتعلنا أزمة وكثر الحديث بين العامة عن سر الفتاة التي حبسها الملك في القلعة بالإضافة إلى ما سيبته الكهنة في الآذان من سموم وأكاذيب واختلاق قصص ومعجزات، فهو ما سيؤدي إلى النتائج الكارثية التي ذكرتها يا سالم.
صاح منفعلًا:

ولكني رأيتها بعيني تخرج من بطن الوثن، أريد أن أعرف سرها، ثم أقرر ما سيحدث.
ليرد عدنان:

أقترح أن نرسل إلى مازر بن صلهوب بأنه سيتم تسليمها بعد أسبوع من الآن.
شرد الملك للحظات ثم قال مبتسمًا: استدعِ رئيس المخابرات، أريده الآن.
طرق الباب بعد دقائق ليدخل السيد نبيل بن بركات، رئيس مخابرات مملكة نيبو، وما إن جلس حتى وجه الملك إليه حديثه قائلًا:

أمرت بسجن فتاة منذ ساعات، أريد فتاة تشبهها في لون بشرتها، وطولها ووزنها ولون عينيها وشعرها، لتكون جاسوسة لنا بمعبد ياسوئيل،

يُفضَّل ألا تكون من أهل نيبو الأصليين، بل أريدها من المهاجرات إلينا من أوروبا أو شمال إفريقيا.
- تمام مولاي، ستتواجد في أقرب وقت إن شاء الله.
- بحد أقصى أسبوع يا نبيل.
- أسبوع واحد فقط يا مولاي؟!
- بحد أقصى.
ما إن انصرف رئيس المخابرات حتى نظر عدنان نظرة إعجاب ثم قال: دائمًا ما تفاجئنا بخطتك المجنونة.
ليرد سالم:

عندما خرجت الفتاة كانت مبتلة تمامًا وكان يغطي الشعر وجهها، وكانت تصيح وتقفز وتضرب وتركل بقدميها، بالتأكيد لم ترتسم ملامح وجهها في عقولهم، أرسل إلى الكهنة أخبرهم بأن الملك قد أمر بإطلاق سراح الفتاة، وأنه يستضيفها في القلعة ككاهنة قديسة، وستصل إلى المعبد بأمان بعد خمسة عشر يومًا، سأوقع لك قرار الإفراج، ألبسوها ملابس الرجال وضعوا أغطية الحجب السوداء على وجهها، ولتسكن إحدى الغرف المستقلة بالجناح الملكي حتى لا يراها مخلوق، إلى أن يتم تدريب الفتاة الجديدة.

استلقى سالم على فراشه بعد نهاية يوم طويل، وما إن أغمض عينيه حتى تذكر ولاء، وهي تقفز بين الكهنة تحاول ضربهم بكفيها الصغيرتين، وكأنها تبعد الذباب عن وجهها، ليتبسم ضاحكًا، ثم تذكر ملامح الانفعال على وجهها، عندما قالت: ألم أقل لك إنك لن تصدقني، وعلا صوت ضحكته عندما تذكر قولها: لن أرقص أمامك مع الحريم وأنت جالس على عرشك تأكل الفاكهة.
فتح سالم عينيه، ثم نهض عن فراشه متوجهًا لغرفتها التي يقف على بابها

جنديان للحراسة، وما إن فتحا الأقفال حتى طرق باب غرفتها لترد:
مَن بالباب؟
- أنا سالم.
- ماذا تريد؟
- سمعتك تقولين إنك تملكين الدليل على صدق حديثك.
- وهل هذا وقت مناسب للحديث في هذا الأمر؟
- هو وقت غير مناسب بالفعل، أعتذر، سنكمل حديثنا صباحًا.
أدار وجهه للعودة إلى غرفته لتفتح باب غرفتها قائلة:
- تعال، أيقظتني من نومي، ولن أستطيع النوم إلا بعد وقت طويل.
دلف الملك إلى غرفتها، ثم نظر إلى وجهها قائلًا:
- لا يظهر على وجهك أنكِ كنتِ نائمة.
- لا بل كنت نائمة، ثم إن الوجه الجميل يظل جميلًا حتى عند استيقاظه من النوم والوجه القبيح، يظل قبيحًا وإن اغتسل كل يوم.
علا صوت الملك ضاحكًا، ليرد قائلًا:
- هل يبدو على وجهي أنني كنت نائمًا؟
- نعم، يظهر هذا بوضوح.
تبسم قائلًا:
- أريد الدليل على صدق حديثك يا ولاء .
لترد بملامح جادة:
- تعالَ ورائي إلى غرفة نومك، سأريك الدليل.
خرجت بخطوات واثقة ليتبعها الملك، واتجهت يمينًا مسرعة، ثم نظرت وراءها لتجده واقفًا في مكانه، نظرت إليه مستغربة، فسألها:
- إلى أين انتِ ذاهبة؟
- إلى غرفة نومك.
- غرفة نومي ليست في هذا الاتجاه، بل في الاتجاه المعاكس.

أدارت وجهها لتمشي مسرعة واثقة الخطى، ثم نظرت خلفها متسائلة:
- أين هي غرفتك؟
ليرد محاولًا كتم ضحكاته:
- الباب الثالث على اليسار.
دلفا إلى الغرفة لتنظر إليه قائلة:
- أغلق الباب جيدًا.
أغلق الباب، ثم جلس على كرسيه منتظرًا.
نظرت إليه قائلة:
- تقريبًا في عام 1980 تم بناء قصر جديد ليكون مقرًا للحكم، وضيافة الزوار من الملوك والرؤساء، وتحولت هذه القلعة إلى متحف يزوره المواطنون والسائحون، وبعد عشر سنوات من افتتاح المتحف تم اكتشاف سرداب سري بغرفة نوم الملك، كان قد أنشأه العثمانيون، لهروب قائد القلعة في حالات الطوارئ، ثم اتجهت ناحية الحائط المقابل لفراش الملك، والذي كان مغلفًا بالأخشاب المنقوشة يبرز منها بعض القطع الفضية الدائرية ضغطت بيدها على بعض هذه القطع، ليبرز بالحائط باب مستطيل، وقف الملك مذهولًا ثم اقترب من الباب بخطوات متباطئة، فمدت يدها فاتحة الباب، كاشفة عن غرفة صغيرة، في أرضيتها باب مربع صغير يكشف عن سلم حجري يؤدي إلى سرداب أسفل الغرفة.
تساءل الملك مذهولًا:
- إلى أين يؤدي هذا السرداب؟
- إلى غرفة صغيرة لا تفتح إلا من الداخل، على مسافة ألف متر تقريبًا من القلعة، بجوار إسطبل الخيول.
تسمَّر في مكانه مندهشًا، وقد علت ملامح وجهه الذهول والتعجب، ليس فقط من وجود السرداب، ولكن من احتمال صدق ولاء حول البئر، والسفر عبر الزمن، ثم نظر إليها، قائلًا:

أغلقي هذا الباب، واذهبي لغرفتك، أريد الجلوس بمُفردي.
في صباح اليوم التالي قرأ الملك التقرير الذي أعده رئيس الاستخبارات حول ردود أفعال الكهنة بعد خروج ولاء من بطن الوثن، ليتيقن أنها ليست عميلة للكهنة، وأنهم تفاجأوا وذهلوا من خروجها ويتخذونها بالفعل قديسة من أبناء ياسوئيل، ثم قرأ التقرير الذي أعده ناظر الشؤون الاقتصادية حول المشروعات والعرض المقدم من مستر روتيلد، والذي أوصى بقبول العرض كاملًا، نظرًا لجدواه الاقتصادية العظيمة، والفوائد المتعددة التي ستعود على المملكة بالخير الوفير مستقبلًا، ثم خرج من قلعة الحكم بعد عدة ساعات، مستقلًا سيارته الملكية، يرافقه موكب مهيب من النظار وكبار رجال المملكة، حيث رصفت الطرق وتزينت بالأشجار وأعمدة الإنارة، والبنايات ذات التصميمات الهندسية الرائعة، وامتدت خطوط السكك الحديدية للربط بين ولايات المملكة، وقد أصبحت نيبو من أجمل بلدان العالم، ليتجه إلى إحدى معسكرات التدريب، حيث كان في استقباله القائد محمود بن مروان، ليُطلعه على سير تدريبات الجنود والضباط ومعاينة شحنة الأسلحة المتطورة القادمة من أوروبا، وافتتاح مصنعين جديدين للسلاح المتطور، ثم غادر المعسكر في موكبه لافتتاح إحدى محطات توليد الكهرباء بالمملكة، وبعض ورش الحرفيين الصغيرة.
عاد للقلعة مساءً وما إن دلف إلى غرفته لأخذ قسط من الراحة حتى طُرق بابه، وعند فتحه لم يجد أي شخص بالباب، تلفت حوله للبحث عن الطارق فلم يجد أحدًا، لفت انتباهه خروج روتيلد من غرفته، وتوجهه إلى مكتب القائد محمود، ظل واقفًا يتابع حتى خرج من المكتب بعد نحو نصف الساعة متجهًا لمكتب الوزير عدنان، ليمكث نحو عشر دقائق، ثم نزل متجهًا إلى بيت المال ليستقبله سليمان ليجلسا معًا في حديقة القلعة، ثم انضم إليهما بنيامين وهاكوب وكمال الدين.
في اليوم التالي، توجه الملك لتفقد العمل بالموانيء ومتابعة حركة تصدير

الأسماك والفاكهة والحبوب والبقول ورؤوس الماشية والأغنام والدواجن، ثم عاد إلى القلعة لحضور الاجتماع الذي يضم مجموعة العشرة، ومستر روتيلد، وناظر الشؤون الاقتصادية، لاتخاذ قرار بشأن اقتراح القرض والمشروعات المقترحة.

دلف الملك إلى قاعة الاجتماعات، ليصطف الحضور وقوفًا، وما إن جلس حتى جلسوا ليبدأ ناظر الاقتصاد حديثه بما أسفرت عنه دراسة المشروعات، وأبدى موافقته وترحيبه بالتعاون مع المؤسسة البنكية لمستر روتيلد، ثم دار النقاش بينهم لينتهي الأمر بالتصويت ليتفاجأ الملك بموافقة الجميع عدا قاسم ورشوان.

تبدلت ملامح وجهه ليظهر الغضب واضحًا في عينيه ثم قال منفعلًا:

- إن أراد مستر روتيلد أن يقترض منا الأموال فخزائننا ممتلئة بفضل الله، وستكون الفوائد أقل بكثير من فوائدكم، مملكة نيبو لا تحتاج للاقتراض، ولديها ما يكفي من مشروعات، عرضك مرفوض مستر روتيلد، انتهى الاجتماع يمكنكم الانصراف جميعًا، وليبقَ الوزير الأول وقائد الجيش.

سادت مجموعة العشرة ملامح الدهشة، بينما يهمّون بالانصراف، حيث كانت المرة الأولى التي ينفرد فيها الملك بقراره دون الأخذ بنتائج التصويت.

ما إن انصرفوا حتى بدأ الملك حديثه متسائلًا:

- كيف وافقتم على هذا العرض؟ هل ذهبت عقولكم جميعًا؟

ليرد الوزير:

- أخذنا برأي خبراء الاقتصاد، فهُم أكثر منا علمًا ودراية.

ثم أتبعه القائد محمود قائلًا:

- لأول مرة ينفرد الملك بقراره ضاربًا بنتيجة التصويت عُرض الحائط.

- بالطبع يجب ألا آخذ بنتائج التصويت، إذا رأيت أنها ستؤدى بنا لسلب حريتنا بالتدريج، قد يلجأ الكثير من الدول للاقتراض، لأنها في حاجة للأموال والاستثمارات، ومن حق حكوماتها أن تنوع مصادر إيراداتها للنهوض

بدولتها، ولها كامل الحق في هذا، أما نحن فلا حاجة لنا أن نستدين من أي طرف.
- وما المانع أن نزيد من إيراداتنا النقدية ومشروعاتنا الاستثمارية إذا كانت ستعود بالنفع على الجميع؟ هكذا رد الوزير ليؤيد القائد محمود كلامه قائلًا:
يوجد ضمن هذه المشروعات يا مولاي ثلاثة مصانع للأسلحة الثقيلة، ستزيد من قوتنا العسكرية.
- ولكنهم سيكونون شركاء بهذه المصانع، وسيعلمون أسرار أسلحتنا، ثم يتحكمون تدريجيًا في كل الصناعات.
ليرد عدنان:
لا جدوى من النقاش، فقد رفض الملك الأمر برمته، وما علينا إلا أن نسمع ونطيع، وأقترح أن تصدر مرسومًا بحل مجموعة العشرة، فلا داعي لوجودها، وليصبح القرار لك وحدك، ثم نهض للانصراف وأتبعه محمود، ليسألهم الملك:
قبل أن تنصرفا، هل يريد أحدكما إخباري بشيء؟
صمتا لثوانٍ، ثم قالا:
لا شيء.
ليأذن لهما بالانصراف بعد أن أخبرهما باستدعاء كارول.
ما إن دلف كارول إلى المكتب حتى أمره الملك بكتابة مرسوم برفض عرض مستر روتيلد، وآخر بإقالة وزير الشؤون الاقتصادية، ومرسوم ثالث بتعيين السيد رابح بن الشاكر وزيرًا للاقتصاد.
ثم جلس يفكر فيما دار أمس بين روتيلد وعدنان ومحمود، ولماذا لم يخبراه بهذا اللقاء؟
تعِب عقله من التفكير، فخرج متوجهًا إلى غرفة ولاء، طارقًا بابها لترد قائلة:
- مَن بالباب؟

- أنا سالم.
- تفضل.
- كيف حالك؟
- تمام.
- هل يمكنني التحدث إليكِ قليلًا؟
- نعم يمكنك.
- في أول لقاء لنا سألتِني لماذا كذبت عليّ، ماذا كنتِ تقصدين؟
- كنت أظنك الشاب الذي كنت أظن أنني أحبه.
- تظنين أنكِ تحبينه!
- نعم، كنت أعتقد أنى أحبه.
- واكتشفتِ أنكِ لا تحبينه؟
- قلت نعم، لماذا تكرر الأسئلة؟
- هل خرج من هذا البئر في زمانك من ادعى أنه قادم من المستقبل؟
- لا أعلم، قد يكون خرج أحدهم في وقت ما، ولكني لم أرَه.
- قلبي يميل إلى تصديقك يا ولاء، ولكن عقلي ما زال رافضًا.
- أريد أن أسألك سؤالًا.
- تفضلي.
- لماذا لم تتزوج حتى الآن؟
- لا أعلم، يبدو أنني نسيت.
- هل أحببت من قبل؟
- لا، ولكن لفتت انتباهي ابنة صديق والدي بإسطنبول، وكنت سأتقدم لخطبتها، إلا أنني سُجنت قبل أن أفعل.
ثم ضحك قائلًا:
وأحببت خادمة، كانت تعمل في قصر والدي، وعندما علمت أمي طردتها من القصر.

لتسأله متعجبة:
- اثنتين فقط؟
- نعم، اثنتين فقط، هل العدد قليل إلى حد ما؟
- طبعًا، قليل جدًا، أنت ملك يجب أن تتزوج بأربع نساء، لتنجب منهن على الأقل خمسين طفلًا حتى يظل المُلك في عائلتك إلى الأبد.
علا صوت ضحكته قائلًا:
- خمسون طفلًا!
- نعم، هكذا يفعل الملوك، ولكنك لن تتزوج إلا بواحدة فقط، ولن تنجب منها أطفالًا.
- وكيف عرفتِ؟
- من كتب التاريخ.
- ماذا يقول عنى التاريخ في زمانكم؟
- كتب عنك التاريخ أنك كنت رجلًا عادلًا، أسست مملكة أصبحت فيما بعد من أقوى ممالك الأرض، وأنك طردت العثمانيين من الجزيرة، وأنك سُجنت لأنك كنت بطلًا مناهضًا للظلم.
ضحك قائلًا:
سأقول لكِ سرًا، لم أكن بطلًا على الإطلاق، أثناء خروجي من مدرستي بإسطنبول تصادف خروج مظاهرة ضخمة في الوقت نفسه، فرأيت عدنان «الوزير الأول» وقد انضم للمظاهرة، وكان صديقي فحاولت الاقتراب منه وسط الزحام لإقناعه بأن يترك تلك المظاهرة، حتى لا يتم اعتقاله، ولكن لم يسعفني الوقت، سمعت أصوات أعيرة نارية فحاولت الهرب والاختباء في أي مكان حتى قبض عليّ أحدهم، وأدخلني إلى عربة حديدية تجرها الخيول، حتى وصلت للسجن، بعد دخولي الزنزانة بساعات فُتح بابها لأجد عدنان داخلًا جالسًا إلى جواري.
ثم علت ضحكته قائلًا:

يظنني مناضلًا حتى هذه اللحظة، لم أخبره بالحقيقة ولن أخبره.
لترد ولاء بكلمات متقطعة ضاحكة:
أنا سأخبره بالحقيقة عندما أراه.
ليرد قائلًا:
أول من تعرَّفت إليه من زملاء المدرسة العليا هو عدنان، كان ذا شخصية عجيبة، رغم أفكاره المعارضة ونشاطه السياسي فإنه كان له العديد من المغامرات النسائية رغم صغر سنه، وحاول مرارًا أن يعيدني إلى ما كنت عليه في الماضي، إلا أنى حاولت أن أجعله أكثر أدبًا واحترامًا.
لتسأله بتهكم:
وماذا كنت في الماضي؟ ألم تقل إنهما اثنتان فقط؟
- كنت شابًا طائشًا بعض الشيء، المال حولى كالهواء وبين يدي كالماء، كانت غاية الحياة هي المتعة واللهو والسعادة بلا مسئولية، ثم تغيَّرتْ أفكارى حينما عرفت شبابًا في نفس عمري تقريبًا على استعداد للتضحية بحريتهم ومستقبلهم، فداءً لأفكارهم، رغم اختلافي معهم في كثير من الأمور وتحفظي على العديد من أهدافهم.
طرق باب الغرفة ليأذن الملك للطارق بالدخول، فإذ بأحد الجنود قائلًا:
رئيس المخابرات ينتظر جلالتك بالمكتب.
- أخبره أنني قادم.
أدار سالم وجهه خارجًا، وما إن اقترب من الباب حتى تقدمت ولاء تجاهه مسرعة، وأمسكت يده بكلتا يديها.
نظر سالم إلى عينيها اللتين توشكان أن تبدآ بالبكاء، قائلًا:
- هل هذه الدموع من كثرة الضحك؟
لترد قائلة:
- لا تتركني وحدي لفترات طويلة، لا يتحدث معى في هذا المكان أحدٌ سواك.

ابتسم وأومأ برأسه إيجابًا، ثم انصرف.
ما إن وصل إلى مكتبه، حتى وجه حديثه لرئيس المخابرات قائلًا:
- ما الأخبار يا نبيل؟
- وجدت الفتاة البديلة، ووافقت على التعاون.
- رائع، ما جنسيتها؟
- مغربية، جاءت مع أسرتها منذ عامين، كان يعمل والدها مهندسًا في مجال الكهرباء في إسبانيا ويعمل الآن بشركة توليد الكهرباء بالمملكة.
- هل تشبه ولاء بدرجة كبيرة؟
- بالتأكيد.. ستقيم مع ولاء في غرفتها حتى ينتهي الأسبوعان، وستتجول في القلعة بصورة مستمرة حتى يراها الجميع، ويتأكدون أنها الفتاة المقصودة ثم نرسلها إلى المعبد.
- ممتاز، أريد أن أشيع بين العامة أن هذه الفتاة جاءت إلى القلعة هاربة بعد أن حاول أحد الكهنة الاعتداء عليها، وأنها ستعود إلى المعبد مرة أخرى بكامل إرادتها، بعد أخذ الملك التعهدات اللازمة من كهنة المعبد بحفظ كرامتها، وصيانة عرضها.
- تمام أفندم.
- يمكنك الانصراف، وأخبر كارول باستدعاء عدنان.
طرق الباب بعد دقائق ليدخل عدنان، فأذن له سالم بالجلوس، ثم أردف قائلًا:
ما أخبار الجيش الموازي؟
- تمام، ستصل غدًا بمشيئة الله من أوروبا شحنة السيارات.
- كم عددها؟
- خمس مئة سيارة، تحدثت من الجنرال لويس جوميز، قائد الجيش الموازي، وبعض المهندسين لإضافة بعض التعديلات عليها، لتثبيت بعض قاذفات الصواريخ على جسم السيارة، وإضافة جزء يمكن للجنود الوقوف

عليه حاملين أسلحتهم.
- تمام، سأحضر معك غدًا بمشيئة الله؛ لاستقبال الشحنة، وأريدك أن توزع مئة سيارة على مقاطعات المملكة ليتمكن المسئولون من متابعة أعمالهم بصورة أسرع.
بعد مرور بضعة أيام، غادر مستر روتيلد مملكة نيبو والوفد المرافق، عائدين إلى بلادهم، واتجهت الفتاة البديلة إلى معبد ياسوئيل لبدء مهمتها.
استدعى الملك الوزير عدنان والقائد محمود إلى مكتبه، ليبدأ حديثه قائلًا:
انتظرت أيامًا آملًا أن تخبراني أنكما التقيتما مستر روتيلد قبل يوم من الاجتماع، وأن تنبئاني بما دار بينكم فلم يحدث، ما سر هذا اللقاء؟ ولماذا أخفيتماه عنى؟ ولماذا وافق الجميع على هذا العرض رغم أنكم تعلمون أن غرضه هو فتح باب للتدخل في شئون المملكة؟
ليرد عدنان:
- نعم، التقيته بمكتبي وكان لقاءً عاديًا بلا أهمية.
ثم قال محمود:
طرق الرجل باب مكتبي، ثم جلس وأوضح لي مدى سعادته بالوجود في بلادنا، وأنه يتمنى أن توافق مجموعة العشرة على عرضه، فقلت له إن الأمر بيد خبراء الاقتصاد، إن وافقوا سنوافق.
فتح الملك درج مكتبه وأخرج مظروفًا مغلقًا وألقاه أمامهما، قائلًا:
افتحاه، وأخرجا ما به.
مد عدنان يده فاتحًا المظروف لترتسم ملامح الذهول والإحراج على وجهيهما، حيث وجدا بعض الصور الفوتوغرافية لهما بإحدى الحانات بصحبة بعض العاهرات.
ساد الصمت لثوانٍ، ليواصل الملك قائلًا:
للأسف أصبحتما غير صالحين كرجال دولة، المكان الطبيعي لكما هو السجن، ولكن لن أفعل ذلك احترامًا لما بيننا من صداقة، ثم استدعى

كارول ليحضر ممسكًا ببعض الأوراق ليخرج سالم خاتمه الملكي من أحد الأدراج، ليعتمد المرسوم الأول بإقالة عدنان ومحمود من منصبيهما، ووضعهما تحت الإقامة الجبرية بمنزليهما، ثم اعتمد مرسومًا بتعيين السيد عبيد بن الحارس بمنصب الوزير الأول، ثم نهض متجهًا لأحد الأبواب، ونظر إليهما مبتسمًا ليقول:

أعددتُ لكما مفاجأة، ثم فتح الباب ليكشف عن خليل بك واقفًا، وقد اعتلت ملامح وجهه نظرات النصر والثقة، ثم أردف قائلًا:

- نعم هو خليل بك، قائد الرحلة التي أتت بنا كمساجين مُرحّلين من سجن يدي قله إلى سجن الجزيرة، سيصبح قائدًا للجيش.

نظر إليه عدنان ومحمود في دهشة وذهول، ثم اتجه عدنان بحديثه للملك قائلًا:

ماذا تفعل يا سالم؟ أنت تهدم ما بنيت، نعلم أننا أخطأنا، ولكن لا تحاول إصلاح الخطأ بارتكاب خطأ أكبر.

أومأ سالم برأسه، ليدخل الجنود ليكبِّلوا محمود وعدنان بالأغلال، مصطحبين إياهما لتنفيذ قرار الإقامة الجبرية.

فى نهاية يوم عصيب اتجه سالم طارقًا باب غرفة ولاء لترد:

- مَن بالباب؟

- أنا سالم، وهل يطرق باب غرفتك غيرى؟

- نعم، تطرق الباب الخادمة عندما تأتيني بالطعام، وأعتذر، فلا يمكنني أن أسمح لك بالدخول.

- لمَ يا ولاء؟

- حتى لا يظن أحدهم ظن سوء.

- صدقتِ، إذًا افتحي الباب، واخرجي لنجلس في حديقة القلعة أمام الجميع.

خرجت ولاء من غرفتها قائلة:

- كيف سأعود إلى وطني وعائلتي وأصدقائي؟
- لا أعرف.
- ألست الملك؟ والمسئول عن كل مَن يعيش على أرض نيبو؟
- بلى، ولكن لم أفكر في هذا الأمر، وهل هذا ممكن؟
- طالما سافرت بي البئر إلى الماضي، فالأكيد أنه من الممكن أن تأخذني إلى المستقبل.
- لا أعلم يا ولاء، الأمر برمته جنوني وغير منطقي.
- ماذا بك يا مولاي؟ أراك مهمومًا.
- لا أريد الحديث في شيء، أريد أن أبقى بمفردي، أعتذر لأني أزعجتك، وأخرجتك من غرفتك.
ثم أدار وجهه متجهًا لغرفته لتتبعه ولاء، وما إن دخلا إلى الغرفة حتى جلس على الأرض واضعًا رأسه بين ذراعيه، وأجهش بالبكاء، اقتربت ولاء جالسة بجواره ثم ربتت على كتفه، قائلة:
- لم أرَك بهذا الضعف من قبل، ماذا حدث؟
رفع رأسه وقد ملأ الدمع عينيه قائلًا:
- أغلقي باب الغرفة حتى لا يراني أحدهم.
أغلقت الباب ثم عادت لتجلس بجواره قائلة:
- ماذا حدث؟ ولماذا أنت بهذه الحال؟
رد قائلًا:
- ليتني أستطيع البوح بما حدث، يُدفن الملوك وتدفن أسرارهم معهم، كثيرًا ما أشعر بأنني أريد إزاحة همومي عن كاهلي، أريد أن ألقى بآلامي على مسامع أحدهم، ولكن لا أستطيع فلن يشعر أحد بما أشعر، ولن أجد دوائي في كلمات تُقال نفاقًا لا يشعر بها قائلها.
- أراك تلبس الحرير وتأكل ما طاب من الطعام، وتسكن في قلعة مهيبة، أنت في نيبو يا مولاي، أنت في الجنة.

- الجنة ليست في ارتداء الحرير وطيّب الطعام، وسكنى القصور، الجنة في راحة البال ورضا القلوب والعقول.
- صنعت الجنة بيديك يا مولاي، ويعيش شعبك الآن في نعيمها أمام عينيك، وسيرثها أبناؤهم وأحفادهم لأنك أنت من أسستها، أنت لا تعرف قدر نفسك، ولا تعلم ما قيل عنك في كتب التاريخ، لا يزال الناس يتحدثون عنك حتى هذه اللحظة بكل عزة وفخر، ولا يُذكر اسمك حتى يُذكر قبله جلالة الملك المؤسس.
قال متعجبًا:
هذه اللحظة!
- أقصد حتى عام 2010.
- تبسم الملك قائلًا:
تذوق الحكومات طعم الجحيم لتعيش الشعوب في الجنة، وإن أرادوا العيش في الجنة أذاقوا شعوبهم طعم الجحيم.
ثم نهض واقفًا ونظر إليها قائلًا:
اذهبي لغرفتك حتى لا يظن أحدهم ظن سوء.
وقفت قائلة، بينما تنظر في عينيه:
كم من الأيام ستغيب عنى حتى أراك مرة أخرى.
ليرد قائلًا:
أريد أن أعرف اسم ذاك الشاب الذي كنتِ تحبينه في زمانك، واسم والده وجده.
- لماذا؟
- لأقتل جده، فلا يولد.
نظرت إلى الأرض مبتسمة في خجل، ثم رفعت رأسها لتنظر في عينيه قائلة:
نسيت أسماء الرجال جميعهم، لم يبق في عقلي إلا اسم سيدهم، أحببت ملكًا عظيمًا للأبطال قائدهم، أحببت مَن علم الدنيا كيف يكون سيد القوم

خادمهم.
نظر لها الملك مبتسمًا ليقول:
وأنا أحببت شاعرة جاءت من المستقبل وخرجت من بطن ياسوئيل.
علت ضحكتها، وتورَّد وجهها، ثم أردف الملك قائلًا:
هل تقبلى أن تصبحين ملكة على نيبو؟
بعد مرور سبعة أيام، امتلأت سماء نيبو بالزينات، وأضيئت شوارعها بالمصابيح والمشاعل واحتشد العامة حول القلعة احتفالًا بزفاف الملك سالم بن العابد على زوجته الملكة ولاء بنت الحامد.
عُزفت الموسيقى والألحان، وسادت أجواء الغناء والرقص بين الناس، وعلت الضحكات ووزعت الهدايا، وجال الملك وزوجته بعربة الزفاف التي تجرها الخيول في شوارع المملكة، تحيطها السيارات المزينة بالورد في موكب مهيب، مرتديًا حُلته الملكية، ممسكًا بصولجانه الذهبي على رأسه التاج المرصع بالألماس والجواهر والأحجار الكريمة، واقفًا يلقى التحية على شعبه بجوار زوجته التي تزينت بفستانها الأبيض، ويلقي الناس الأزهار على رأسيهما.
عاد موكب الزفاف إلى القلعة ليتجه العروسان إلى غرفتهما، وينصرف الناس إلى بيوتهم، وتبدأ شوارع نيبو في الهدوء تدريجيًا.
نهضت ولاء من فراش زوجها ناظرة إليه لتتأكد أنه مستغرق في سبات عميق، ثم اتجهت إلى خزانة ملابسه تبحث عن سلسلة المفاتيح، وما إن وجدتها حتى تسللت خارجة من غرفتها بخطوات متباطئة حتى وصلت إلى مكتب الملك، لتفتح بابه داخلة، ثم أمسكت بقلم لتكتب بعض الأوراق، ثم فتحت أحد الأدراج لتخرج الخاتم الملكي، وتعتمد الأوراق التي كُتبت.
طُرق باب المكتب لتدخل تلك الخادمة التي كانت تأتى بالطعام إلى غرفتها قبل زواجها لتعطيها تلك الأوراق المهورة بخاتم الملك، ثم انصرفت

الخادمة، واتجهت ولاء راقدة في فراش زوجها متجهمة الوجه، ترتسم عيناها بملامح الحزن، وقد سال الدمع على وجنتيها.
نمى إلى مسامع حراس القلعة ضبح الجياد المهرولة اقترابًا من بواباتها، وما إن اقتربوا من أسوارها حتى اتضحت ملامحهم، فهُم البعض من كهنة معبد ياسوئيل، أوقفهم أحد الضباط متسائلًا عن سبب قدومهم ليخبروه بأنهم يرغبون في الحديث إلى السيد نبيل، رئيس المخابرات، في شأن خطير، فأنبأهم الضابط بأنه في منزله، ولا يمكن إيقاظه في هذه الساعة المتأخرة، ليرد أحد الكهنة قائلًا:
- إذن أيقظ الملك، وأخبره بأننا نريد لقاءه.
رد الضابط منفعلًا:
ألا تعلمون أنه يوم زفافه؟ هل جُننتم؟
خرج أحد الضباط متسائلًا عما يحدث، وعندما شعر بخطورة الأمر أرسل أحد الجنود لإيقاظ السيد نبيل بن بركات، وما هي إلا دقائق حتى فزع الجميع من جراء أصوات عدة انفجارات متتالية تزلزل أرجاء المملكة.
نهض سالم من نومه فزعًا، ليتجه لشرفة غرفته، فإذ بأعمدة الدخان تتصاعد إلى السماء المضيئة بألسنة اللهب، وما هي إلا لحظات حتى أُطلق بعض الأعيرة النارية تجاه شرفته دون أن تصيبه، هرولت ولاء تجاهه لتمسك بذراعه، فدفعها داخل الغرفة حتى لا تصاب بمكروه، ثم هرول تجاه إحدى النوافذ ناظرًا إلى فناء القلعة، وقد ساد الهرج والفوضى أرجاءها، واقتحم الكهنة أبوابها بجيادهم، يطلقون النار على كل مَن يتواجد من جنود وعاملين، ويلقون عبوات متفجرة في أنحائها بصورة عشوائية، لتسيل الدماء المختلطة بألسنة اللهب التي تحيط بالجثث المتفحمة.
هرول تجاه باب غرفته، بينما تحاول زوجته منعه دون جدوى، تفاجأ بأحدهم يحاول كسر باب غرفته، ليدفع سالم بزوجته لتختبئ خلف الباب

بعد فتحه، وما أن كُسِر الباب حتى تفاجأ سالم بخليل بك يقف أمامه قائلًا:
- ألم أقل لك إنك لن تقدر على مواجهة ياسوئيل العظيم، ثم دفعه داخل الغرفة ليطرحه أرضًا وما إن التفت خليل ليغلق الباب حتى فاجأته ولاء بضربة من تمثال حجري على رأسه، ليسقط غائبًا عن الوعي.
أغلقت الباب مسرعة لتساعد زوجها على النهوض قائلة:
لا وقت لدينا يا سالم، يجب أن نغادر القلعة.
ليرد قائلًا:
لن أهرب، سأموت هنا.
ثم نهض ممسكًا بذراعها، متوجهًا إلى باب القبو المؤدي إلى السرداب، قائلًا:
اهربي يا ولاء.
نظرت إلى عينيه ممسكة يده بقوة، قائلة:
فات الأوان، ولن يستطيع أحد أن يمنع ما حدث، أقصد ما سيحدث، تأكد أن اختفاءك الآن هو ما سيحافظ على هذه المملكة من الضياع.
ليرد قائلًا:
لن أهرب.. يجب أن أكون أول مَن يواجه، وليس أول من يهرب.
قالت منفعلة:
- لن تستطيع أن تغير مجرى التاريخ يا سالم، تأكد أنهم لو أمسكوا بك أو قتلوك ستكون نهاية كل شيء، فقط ثق بما أقوله لك، ثم أمسكت بيده ومدت الأخرى تفتح باب القبو المؤدى إلى السرداب ليهرولوا مبتعدين عن القلعة، وما إن وصلوا إلى تلك الغرفة المغلقة خارج أسوار القلعة حتى اتجهت ولاء لتفتح بابها، فنمى إلى آذانه صوت خطوات بالخارج، فأشار إليها ببنانه لتهدأ، ولا تصدر أي صوت، ثم اتجه إلى نافذة خشبية ناظرًا بين فتحاتها، ليجد عدنان ومحمود وقد أخرجا جوادين من إسطبل الخيول المجاور للغرفة، ثم انطلقا مبتعدين تجاه أطراف الجزيرة.

جلس على الأرض شارد الفكر، تضرب الظنون عقله، لتقترب منه ولاء متسائلة في لهفة:
مَن كان بالخارج؟
ليجيبها:
عدنان ومحمود.
ابتسمت ولاء، وربتت على كتفه قائلة:
اطمئن، سيكون كل شيء على ما يرام.
ثم فتحا باب الغرفة بعد دقائق متجهين لإسطبل الخيول، ليمتطى صهوة جواده، ثم أجلس زوجته وراءه، وتساءل إلى أين سنتجه؟
لتجيبه:
انطلِق إلى مقاطعة ياسوئيل، واتجه خلف المعبد حيث التلال، وإياك أن تقترب من بوابته.
لينطلق بجواده مهرولًا، وما إن وصل إلى التلال حتى نزلا عن الجواد، لتمسك بيده متجهة إلى بوابة كهف صغير تغطيه بعض الأحجار، بدأت في إزالة الأحجار، بينما اتجه سالم صعودًا إلى قمة التل ناظرًا بعينيه الدامعتين إلى تلك الجنة التي صنعها بيديه، إذ يراها تنسلخ لتكشف عن جحيم يلتهمها عبر لهب مستعر، لا يرى إلا ألسنة اللهب وأعمدة الدخان التي غطت سماءها بغمام أسود، أمسكت ولاء بيده قائلة:
- لا وقت لدينا، سيعودون إلى المعبد قريبًا.
دلفا إلى الكهف، ثم أعادا إغلاق بوابته بالأحجار ليسيرا بخطوات متباطئة في ممر حجري ضيق، وما إن اقتربا من نهاية الممر حتى لاحظا وجود غرفتين حجريتين، إحداهما جهة اليمين، والأخرى على اليسار، ينبعث من الغرفة اليسارية ضوء لهب مشتعل، اقتربا من الغرفة ليقف سالم خلف أحد الجدران ناظرًا، ليجد رجلًا متوسط الطول قوى البنية عاري الجسد، يغطى جسده ما يشبه الأصداف ذات اللون الأسود والرمادي، والتي ينمو

بينها ما يشبه قشور الأسماك السميكة جالسًا على جذع خشبى لإحدى الأشجار المقطوعة لتدخل إليه امرأة تبدو وكأنها نحيفة القوام، محنيَّ ظهرها ذات شعر طويل كثيف، يغطى كامل جسدها من منبت رأسها حتى أصابع قدميها، بيدها إناء به بعض الطعام، مد يده اليمنى ممسكًا بالإناء ليتناوله باليسرى التهامًا، وكأنه آخر ما سيصل جوفه من زاد في حياته، ما إن رأت ولاء هذا الكائن حتى ارتعدت فرائسها، محاولة الابتعاد، لتتعثر قدمها بحجر على الأرض، فيلتفت ناظرًا إليهما بعين لامعة واحدة واسعة حالكة السواد، ليهرولا داخلين إلى تلك البوابة الموجودة على اليمين، ويدخلا إلى ممر ضيق في نهايته بئر قد بُنيَ فوقها وثن ياسوئيل.

نظر سالم إليها متعجبًا لتنظر إليه قائلة:

لا وقت لدينا، ثم أمسكت بيده لتلقى بنفسها وزوجها إلى قاع البئر.

ولاية نيبو

1980

ما إن انتهى كامل من دفن زوجته حتى نقش بعض الكلمات على حجر متوسط الحجم، ليضعه فوق قبرها، ثم مشى في شوارع المدينة على كتفه حقيبة جلدية تحوي بعض أغراضه، وذلك الكتاب الذي يطوى بداخله تلك الأوراق التي كانت تخفيها، ثم وضعتها في يده قبل وفاتها، والذي لا تزال تخفى أوراقه آثار دموعها في أثناء قراءته، تكاد تنعكس أضواء السيارات والمحال التجارية ولافتات الدعاية المضيئة في تلك الدموع التي تغمر عينيه، لتأخذه قدماه إلى موقف سيارات الأجرة، ليستقل إحداها متجهًا لمقاطعة ياسوئيل، ثم اتجه إلى كهف التلال الخضراء.

جلس الشاب على حافة البئر يداريه، وثن ياسوئيل، وهو يدخن سيجارته المحشوة بمخدر الحشيش ناظرًا إلى الظلام الممدود أمامه بلا نهاية، والذي طالما وجد فيه راحته النفسية والبدنية، حيث ينسى همومه التي لا تختلف كثيرًا عن هذا الظلام الممدود.

بدأ مخدر الحشيش يؤثر في أطرافه وعقله وعينيه، وبدأت تدور حوله الدنيا ويدور حول نفسه عكس حركة دوران الدنيا أمام ناظريه، ليشعر فجأة بسيولة المياه تغمر جسده، ويزداد الظلام ظلامًا ولا يستطيع أن يمرر الهواء إلى رئتيه.

نعم.. سقط في البئر، لتبدأ يداه وقدماه في ضرب المياه التي تحيطه بصورة

عشوائية بحثًا عن نسمة هواء تملأ رئتيه، فتعيد له الحياة التي بدأت في نهايتها، تزداد ضربات يديه وقدميه وقلبه بصورة هيستيرية.
ليخاطب عقلُه قلبَه: هل هذه هي النهاية؟ هل سينتهي عذاب الدنيا في تلك اللحظات ليبدأ عذاب الآخرة؟ نعم فأنا أموت تحت تأثير مخدر الحشيش لألقى ربي يوم بعثي في حالة سُكْر.. هل هذا ما أستحق بعد كل ما عانيته في هذه الدنيا رغم صغر سني؟
ثم تبدأ أطرافه في السكون، وتغلق عيناه ليزداد الظلام ظلامًا.. ها هو يسقط بهدوء وبطء إلى قاع البئر التي طالما كانت الملاذ من هموم الدنيا وعنائها، وها هو يهوي بهدوء يكاد جسده يلامس قاع البئر بعد أن سكن جسده تمامًا عن أي حركة.
ثم تُفتح عيناه فجأة ليبدأ مرة أخرى في ضرب الماء من حوله بكلتا يديه وقدميه، وتدب في جسده قوة لا يعرف مصدرها، ويتحرك وهو لا يعلم: هل في اتجاه النجاة أو في اتجاه القاع؟ بدأ يشعر بنسيم الهواء الذي كان حلمًا وأملًا ينشده، وها هو على سطح المياه داخل البئر.. ولكن.. هناك أمر غريب.. فهذا هو ضوء الشمس يضيء البئر ويملؤها نورًا.. أين ذهب الظلام؟
فارت مياه البئر صعودًا لتُلقي به بين التلال، ليقف ناظرًا حوله مستغربًا، فهذا ضوء الشمس الساطعة يضيء الأرجاء، وقد كان ظلام الليل حالكًا عند سقوطه، كما لا يوجد أثر لمعبد ووثن ياسوئيل، مشى بخطوات متباطئة يجول ببصره يمينًا ويسارًا، حتى وصل إلى طريق مرصوف ليلاحظ أن عدد السيارات قليل للغاية، فلا زحام ولا غبار ولا ضوضاء، أشار لإحدى السيارات فتوقفت ليسأله قائدها:
- ماذا تريد؟ ولِمَ ملابسك مبتلة؟
ليجيبه:
اختل توازني، فسقطتُ في بئر قريبة من هذه المنطقة.

ليرد الرجل:
لا أستطيع أن آخذك معى بتلك الملابس المبتلة، ثم سار مبتعدًا.
أشار لسيارة أخرى، وكانت تنقل بعض الخضراوات على مقطورة خلفها فتوقفت، فبادر بالحديث قائلًا:
- أريد أن أذهب إلى شارع السلام، ولن أجلس بجوارك، بل سأجلس بالمقطورة الخلفية للسيارة.
ليسأله الرجل:
- أين يوجد هذا الشارع؟ لا أعرفه.
- بالقرب من وسط مدينة هيكاريا.
- لا أستطيع أن أقترب من وسط المدينة فالأوضاع مضطربة في هيكاريا، وسمعت أنهم فرضوا حظر تجوال بالشوارع الرئيسية.
ليرد متعجبًا:
- حظر تجوال! لماذا؟
ليُجيبه الرجل:
- اركب بجواري، سأوصلك لأقرب مكان أستطيع الوصول إليه، ثم أردف قائلًا:
- ما اسمك، يبدو أنك غريب؟
- نعم أنا من مقاطعة شبيب.
- وما الأوضاع هناك؟
- الأمور عادية، لماذا فُرض حظر التجوال بالعاصمة؟
- ألم تسمع إلى بيان كهنة ياسوئيل بالمذياع؟
- لا، لم أسمع شيئًا.
- لقد حاصروا القلعة وطردوا المحتلين، وأصبح زمام الأمور بأيديهم.
- أي محتلين؟
- الأتراك.

- أنا لا أفهم شيئًا، اشرح لي بالتفصيل.
- هل أنت من أهل نيبو؟ أتعجب أنك لا تعرف شيئًا عما يحدث.
- كنت مريضًا وفاقد الوعي لفترة طويلة ولا أعرف ما يحدث.
- حمدًا لله على سلامتك، ما اسمك؟
- اسمي كامل بن عبد الله.
- أهلًا بك، وأنا رائد بن يعقوب، بالتأكيد تعلم أن مملكة نيبو أسسها الملك سالم بن العابد.
- نعم أعلم هذا.
- لم يكن الملك سالم من أبناء نيبو، بل كان محتلًا من الأتراك.
- تمام.. في أي عام نحن؟
نظر الرجل له مستغربًا ثم قال: 1960م.
بدت على كامل ملامح الدهشة، ثم أردف قائلًا:
أكمل يا سيد رائد.
- حاول الكهنة الاستيلاء على الحكم في الماضي، وحاصروا القلعة واقتحموها، واختفى الملك سالم وزوجته، ولم يعثر عليهما أو على جثتيهما حتى الآن، هناك من يقول إنهما قُتلا ودفنهما الكهنة بمكان مجهول.
- تمام، أكمل.
- ثم عاد الملك عدنان بن الظافر، وكان وقتها وزيرًا للملك سالم برفقة القائد محمود بن مروان الذي كان وزيرًا للدفاع بجيش جرار، وحاصروا القلعة، وقتلوا وسجنوا مَن كان بها من الخونة والكهنة، ثم اتجهوا إلى مقاطعة أسهيل التي كانت تسمى سابقًا ياسوئيل، فاقتحموا المعبد، وهدموا وثن كان أيضًا يسمى بوثن ياسوئيل، ثم هرب من تبقى من الكهنة وأعوانهم، وتشتتوا في أماكن متفرقة، ونسي الجميع أمرهم لعدة عقود، حتى فوجئ الناس صباح اليوم ببيان ألقاه رجل يدعى نائل بن مازر، يفيد بتوليه السلطة في البلاد، والقضاء على احتلال الأتراك، وأن نيبو

عادت لأبنائها، وإلغاء الملكية وإعلان الجمهورية، وفرض حظر تجوال في الشوارع الرئيسية، وحظر الاقتراب من القلعة.
ظل كامل صامتًا متجهم الوجه لثوانٍ، ثم قال متسائلًا:
- وهل الملك عدنان رجل ظالم؟
ليجيبه السائق: لا والله، نعيش جميعًا حياة رغدة ولا ينقصنا شيء.
- ولماذا تصمتون على ما يحدث؟
- وماذا نفعل؟ ثم أشار بيده إلى نافذة السيارة قائلًا:
- انظر هناك، هل ترى الدبابات والمدرعات والجنود المدججين بالسلاح؟ ماذا تريدنا أن نفعل؟
نظر إليه كامل وقد علا صوته قائلًا:
- أنتم لا تدركون مدى خطورة ما يحدث، أنت لا تعلم ماذا سيحدث لهذه المملكة بعد عشرين عامًا، ثم استنشق بعض الهواء ليهدأ سائلًا:
- هل تجد ثمن علاجك وأسرتك إذا مرضوا لا قدر الله؟
ليرد:
نعم بالطبع لدينا تأمين طبي شامل، فالعلاج والدواء على نفقة المملكة.
- هل تعلم أنه سيأتي يوم إذا مرض فيه شخص ما فلن يجد مكانًا لتلقى العلاج؟ ولن يقدر على توفير ثمن الدواء الذي يحتاجه للشفاء، هل تعرف أنه سيأتي يوم ستحتاج فيه أموالًا طائلة لتدبير نفقات التعليم لأبنائك؟ هل تتخيل أن هذه المملكة ستصبح ولاية تابعة لأوروبا تسيَّرها كيف تشاء؟ يتخذ هؤلاء الكهنة من دينهم الزائف طريقًا لجذب تعاطف مَن لا يعلمون ولا يفقهون في سبيل تحقيق أغراضهم وزيادة أموالهم وسلطانهم.
نظر إليه السائق متعجبًا مما يقول، حتى تفاجأ بإحدى السيارات المدرعة تعترض طريقة، ليوقف سيارته قبل الاصطدام بها، فينزل أحد الجنود موجهًا سلاحه صوب رأسه صائحًا:
- ألا تعلم أنه من الممنوع السير في هذا الطريق؟

ليرد قائلًا:
- معى بعض الخضراوات، أتيت بها لأحد التجار من مكان بعيد، اسمح لى أن أصل إليه بالحمولة، ويمكنك تفتيشها للتأكد منها.
- ليس لدينا وقت للتفتيش، ارجع حيث أتيت وإلا فجّرت رأسك.
أدار الرجل وجهته عائدًا في صمت، ثم نظر إلى كامل قائلًا:
- سأنزلك عندما نغيب عن أعينهم، لتكمل طريقك.
ليرد كامل:
لا داعي، أنزلني حيث وجدتني.
وما إن وصل السائق حتى نزل كامل متجهًا ناحية البئر، ليجلس مستندًا إلى التلال المجاورة، ثم أخرج الكتاب من حقيبته، وأخذ يتلمس بأنامله آثار دموع زوجته المتناثرة على صفحاته، ثم طوى صفحاته ووضع حقيبته تحت رأسه، ليرقد ناظرًا إلى السماء، وقد ملأ الدمع مقلتيه شوقًا لحبيبته، وما هي إلا بضع دقائق حتى نهض واقفًا على حافة البئر، ليلقي بجسده أملًا في أن يستقر بقاعه لتلتقى روحه بمَن اشتاق لرؤيتها.

مقاطعة أسهيل
مملكة نيبو العظمى 2010م

فارت مياه البئر صعودًا لتُلقي بكامل بين التلال ليشعر بإجهاد شديد، فهو لا يقوى على النهوض، وما إن رفع رأسه حتى وجد أنه محاط بعدد من الجنود المصوبين أسلحتهم نحوه، ليقول أحدهم جاهرًا بصوته:

لا تنهض، ابق راقدًا، وضع يديك خلف رأسك.

حاول النهوض، إلا أن بعض الجنود أمسكوا بيديه فقيدوه متجهين إلى غرفة مغلقة لا يوجد بها سوى كرسيين ليُجلسوه على أحدهما، وطاولة صغيرة ومرآة، فُتح بابها بعد نحو الساعة ليدخل أحد الأشخاص، وكان طويل القامة، أبيض البشرة، أمرد الوجه، ضيق العينين، ذا شعر أسود كثيف، يرتدى حُلة سوداء، فوق قميص أبيض، ليجلس على الكرسي المقابل له، قائلًا:

- أنا الكولونيل علاء بن يامن، من أنت؟
- أنا كامل بن عبد الله.
- كيف وصلت إلى البئر يا كامل رغم ما حولها من حراسة مشددة؟
- لم أصل إلى البئر سيدي، بل خرجت منها؟
- وكيف خرجت؟
- لن تصدق ما سأقوله لك يا سيد.. أعتذر ما اسمك؟
- علاء.. علاء بن يامن.

- لن تصدق ما سأقوله يا سيد علاء.
- قل الحقيقة يا كامل فهذا ما يخصك، أما التصديق من عدمه فهذا ما يخصني.
- صدقت.. سقطت في البئر عام 1980 وخرجت منه عام 1960 ثم ألقيت بنفسي في البئر وخرجت منها منذ ساعة تقريبًا، في أي عام نحن؟
- وجدنا معك حقيبة بها كتاب قديم منطويًا بين صفحاته أوراق بها بعض الجداول والأرقام، من أين حصلت على الكتاب؟ وما تفسير ما هو مكتوب بتلك الأوراق؟
- في أي عام نحن سيد علاء؟
ليرد بنبرة جادة:
يجب أن تعلم يا كامل أني أنا من يُلقي الأسئلة فقط.
ليرد كامل غير مبال بما سمع:
- في أي عام نحن سيد علاء؟

قصر الوزير الأعظم
هيكاريا- مملكة نيبو

جلس الدكتور داود الغريب، الوزير الأول لمملكة نيبو، بحديقة قصره يقلب بأنامله لوحًا ذكيًا، متابعًا الأخبار عبر مواقع بعض وكالات الأنباء، وكان في العقد الثامن من عمره طويل القامة ممتلئ البدن أمرد الوجه ذا شعر أبيض خفيف على جانبي رأسه، ينظر بين حين وآخر لهاتفه الجوال، وكأنه بانتظار اتصال هام، وما إن سمع نغمات الهاتف حتى أمسكه، وما إن نظر إليه حتى رد مسرعًا، وقد بدا على ملامحه الارتباك الشديد:

- أهلًا يا دكتور عاطف.

ثم نهض واقفًا ببطء، وقد زاد ارتباكه قائلًا:

- أحضره إلى قصرى حالًا.

رن الهاتف الجوال الموضوع على الطاولة بغرفة التحقيق، لينتفض كامل، ثم هدأ حين وضعه الكولونيل علاء على أذنه، ليبدأ حديثه قائلًا:

- أفندم، أهلًا دكتور عاطف.

ثم وقف خارجًا من الغرفة ليكمل حديثه بعد أن أغلق بابها قائلًا:

- هو شاب مشرد غريب الأطوار بعض الشيء، متسخ البدن والملابس، ذو شعر كثيف مجعد ملبد، أشعث الشارب واللحية، كان معه حقيبة بها كتاب قديم، بداخله بعض الأوراق غير المفهومة.. ماذا؟ تمام ولكن لِمَ؟

ثم تبدلت ملامحه قائلًا:

من؟! الوزير الأعظم شخصيًا! تمام دكتور عاطف تمام.

أغلق هاتفه ووضعه بجيبه، ليستدعي أحد الضباط قائلًا:

خذوا الشاب الجالس بهذه الغرفة ليغتسل، ثم أحضروا أحد الحجامين

ليهذب شعر رأسه ولحيته، وبدلوا ملابسه في أسرع وقت، ثم أخبرني، فأنا بالمكتب في انتظارك.
أدار السيد علاء وجهه متجهًا إلى مكتبه ليجلس على كرسيه، وقد ارتسم وجهه بملامح الدهشة والتعجب، ثم أمسك بهاتفه الجوال متفقدًا بعض المواقع الإلكترونية.
بعد نحو الساعة طُرق بابه ليكشف عن أحد الجنود قائلًا:
- تم تجهيز الشاب كولونيل علاء، لينهض متجهًا للغرفة، حيث يجلس كامل، وما إن رآه حتى تسمر جسده وتجمدت ملامحه، ثم هرول عائدًا إلى مكتبه ناظرًا إلى الصورة المعلقة على الجدار خلفه مباشرة، كانت صورة ذاك الشاب المشرد الذي يجلس بالغرفة.. لا.. بل كانت صورة الملك المؤسس سالم بن العابد.
تسمّر في مكانه للحظات، ثم وقف على كرسيه نازعًا الصورة المعلقة على الجدار، واتجه هرولة إلى الغرفة، حيث يجلس الشاب ليضعها أمامه ناظرًا إليه تارة، وإليها تارة أخرى، ثم سأله من أنت؟
وقف الشاب ناظرًا للصورة، وقد اغرورقت عيناه بالدموع، متسائلًا:
- هل كنت ستصدقني لو أخبرتك بأني سالم بن العابد؟
نظر إليه السيد علاء بذهول قائلًا:
- هذا لا يصدق، ماذا يحدث؟ أخبرني بالله ماذا يحدث؟
ليرد سالم متسائلًا:
- هل ستصدقني الآن؟
- بالطبع سيدي سأصدقك ولكن.. لا وقت لدينا، فالوزير الأعظم ينتظرك بقصره.
ليرد سائلًا:
- في أي عام نحن؟
- 2010م سيدي.

فتح الباب وهَمّ السيد علاء بالخروج، ثم توقف فجأة مشيرًا بيده إلى سالم قائلًا:

- تفضل سيدي.

ربت سالم على كتفه ليقول:

- تفضل سيد علاء، أنا لا أعلم إلى أين سنذهب.

جلس على الكرسي المجار للكولونيل علاء بسيارته، وانطلقا تجاه مدينة الزهور بالعاصمة هيكاريا حيث قصر الوزير الأعظم.

كان ينظر مبتسمًا من نافذة السيارة إلى تلك الشوارع اللامعة النظيفة المتلألئة بالضياء ذات الهواء النقي، والنسمات العليلة، والتي تصطف على جانبيها الأشجار الخضراء المزهرة التي تلقي بنسائمها وظلالها على المارة والأبراج الشاهقة المصممة بفنون الهندسة وإتقانها، مستمعًا إلى نغمات الموسيقى التي تصدر عن أجهزة البث الصوتي المثبتة في أعمدة الإنارة، والتي عندما يقترب وقت الصلاة تصدح ببعض آيات القرآن، ثم يعلو الأذان بصوت عذب في وقتها، كما تُسمع دقات أجراس الكنائس داعية المسيحيين إلى صلواتهم، وأصوات الأبواق لصلاة اليهود في معابدهم، ثم عبروا أحد الجسور المنتشرة كالشرايين عابرة للنهر المجدول، والذي لا تزال الأزهار تصطف على جانبيه وصولًا إلى مدينة الزهور لتفتح أبواب قصر الوزير الأول لمملكة نيبو، والذي يقف مجاورًا للدكتور عاطف بمدخل القصر.

نزل السيد علاء برفقة سالم من السيارة، ليتجه إليهما دكتور داوود الغريب يتبعه دكتور عاطف بخطوات متسارعة، مد سالم يده مصافحًا لينحني الوزير الأعظم مقبلًا يده، ليتبعه دكتور عاطف وسط حالة ذهول من الكولونيل علاء.

ثم اتجهوا إلى مكتب دكتور داوود داخل القصر، والذي بدا خاليًا من موظفيه، فلا يوجد بالقصر إلا الوزير الأعظم، ودكتور عاطف لينضم إليهما سالم برفقة السيد علاء، وما إن جلسوا حتى تحدث الوزير قائلًا:

- أنا لا أصدق ما يحدث، لا أصدق أنني أجلس أمام جلالة الملك سالم بن العابد، أتحدث إليه وجهًا لوجه.
ليرد الدكتور عاطف:
ومن يصدق هذا سيدي؟
ليرد سالم قائلًا:
يبدو أنكم كنتم تعلمون بوصولي، كيف علمتم؟
ليرد الدكتور عاطف:
رغم أنى متخصص وباحث في مجال الفجوات الزمنية، فإنني لم أكن أعلم بوصولك، فقد أخبرني بالأمر معالي الوزير منذ نحو الشهر بأنه قد يلقي البئر شابًا سافر عبر الزمن، قريبًا، وأنه سيكون الملك سالم بن العابد، والذي لم يذكر التاريخ إلا أنه اختفى وزوجته في ظروف غامضة، ولكن أين زوجتك؟
تنهد سالم قائلًا:
ماتت ولاء.
- أعتذر منك سيدي، غفر الله لها وجعلها من أهل الجنة إن شاء الله.
ليقاطعهما الدكتور داوود قائلًا:
تفضلوا لنأكل أولًا، ثم نكمل حديثنا لاحقًا.
ما إن انتهوا من طعامهم حتى عادوا جالسين بالمكتب ليبدأ سالم الحديث، قائلًا:
أريد أن أعرف كل شيء عن هذه البئر، وكيف علم الدكتور داوود بأنني سأخرج منها في هذا الزمان بهذا التوقيت.
ربت الوزير على كتفه قائلًا:
الدكتور عاطف سيشرح لنا جميعًا بعض الأمور، هو أستاذ علم الفيزياء والعلوم الفلكية والجيوفيزيقة وباحث في علم الزمكان بجامعة الملك سالم بن العابد، لينظر إليه سالم بابتسامة خفيفة، ثم وقف الدكتور عاطف

ليشغل إحدى الشاشات المثبتة على الحائط، وما إن بدأ في حديثه، حتى وقف سالم ناظرًا من إحدى النوافذ المطلة على حديقة القصر، محدقًا بفتاة تسير بخطوات سريعة تبدو في العقد الثاني من عمرها، بيضاء البشرة، ذات شعر أسود، يصل طوله إلى شحمتي أذنيها، تسمر مكانه وقد اغرورقت عيناه بالدموع، ليقف الدكتور داوود آمرًا دكتورعاطف والسيد علاء بالانتظار قليلًا خارج المكتب، وما إن خرجا حتى ربت على كتفه، قائلًا:

- نعم، هي ولاء بنت الحامد.

التفت سالم إليه بنظرات حائرة، وكأنه يسأل في صمت:

ماذا أفعل؟

أردف الوزير قائلًا:

هي إحدى تلاميذ الدكتور عاطف، وباحثة في نظرية الزمكان وما يخص الفجوات الزمنية، لا أعلم من حدد لها هذا الموعد، فهي يجب ألا تعلم حقيقة شخصك، وستعرف أنك الملك سالم بن العابد بمجرد نظرها إلى وجهك، سآمر بتأجيل هذا اللقاء، حتى نتخذ ما يلزم من إجراءات، لضمان سرية الأمر.

سقط سالم على الأرض، ترتعد فرائصه، وقد أصيبت أطرافه بتشنجات عنيفة، ليصرخ الدكتور داوود:

أحضروا طبيبًا.

هرع الجميع لاستدعاء الأطباء لينقل إلى المستشفى الملحق بالقصر، ليستقر بأحد الأسرة بغرفة للعناية المركزة، يجلس بجواره الوزير الأول داوود الغريب، والدكتور عاطف والسيد علاء .

حدق الوزير نظره بوجه سالم، قائلًا:

هذا الرجل إن نظرت إلى عينيه وهيئته حسبته فهدًا أو صقرًا جارحًا، يحلق في السماء، وإن نظرت بداخله تجد طفلًا صغيرًا يفتقد إلى أحضان أمه .

عاد إليه وعيه بعد نحو نصف الساعة ليبدو مشتتًا بعض الشيء، ولا يتذكر

ما حدث له، أو كيف أتى إلى المستشفى، ثم نظر ناحية باب الغرفة قائلًا:
ولاء.. افتقدتك كثيرًا.
نهض الدكتور داوود الغريب ليأمر الجميع بمغادرة الغرفة، واستدعاء الطبيب.
وقف الطبيب سائلًا عن بعض الأمور، ثم دخلت إحدى الممرضات ممسكة بنتائج الأشعة والتحاليل ليخبر الطبيب الدكتور داوود بعد الاطلاع عليها أن الأمر مطمئن، وحدث نتيجة ضغط عصبي شديد ونقص للسوائل بالجسم، وإجهاد بدنى ونفسي، وأنه يحتاج لبعض الراحة والغذاء وبعض الفيتامينات، وأوصى ببقائه يومين بالمستشفى تحت الملاحظة.
وما إن انصرف الطبيب حتى جلس الوزير بجوار سالم، ثم ربت على يده قائلًا:
- أعلم أنك تحملت ما لا يطيقه بشر، ولكن هذا شأن العظماء دائمًا، يجب أن تكمل الطريق لنهايته حتى تحافظ على الجنة التي صنعتها بيديك.
أومأ برأسه إيجابًا، ثم دخل في سبات عميق.
اتجه الوزير الأعظم عائدًا لقصره ليجتمع بالدكتور عاطف والكولونيل علاء، ليطلعوا على الكتاب والأوراق اللذين كانا بحوزته، وما إن انتهوا من قراءة الكتاب حتى بدأ الدكتور عاطف بالحديث قائلًا: - مستحيل أن يكون المكتوب بهذا الكتاب صحيحًا.
ليرد الوزير:
- يجب أن ننتظر حتى يتعافى الملك سالم من مرضه، ليقص لنا ما حدث، ومن أين حصل على هذا الكتاب، ثم نظر إلى السيد علاء قائلًا:
- ما رأيك سيد علاء؟
ليرد الكولونيل:
- بالله يا معالي الوزير إني ما زلت مشتت العقل، ولكن ما قلته هو الصواب، يجب أن ننتظر حتى يقص لنا ما حدث تفصيلًا.

مر اليومان ليأذن الطبيب لسالم بالخروج متجهًا لجناح الضيافة بقصر الوزير الأعظم، وفى اليوم التالي اجتمعوا جميعًا بإحدى قاعات الاجتماعات، ليطلب الوزير من سالم بأن يقص ما حدث منذ خروجه من القلعة، وحتى خروجه من البئر عام 2010.

بدأ سالم حديثه قائلًا:

- خرجنا من القلعة عبر سرداب سرى بغرفة نومي، حتى وصلنا إلى غرفة مغلقة خارج أسوار القلعة، امتطينا أحد الجياد متجهين إلى ممر حجري بكهف خلف معبد ياسوئيل في التلال التي تحتضن البئر، ثم تفاجأنا بغرفة داخل الكهف بها رجل بعين واحدة، يغطى جسده ما يشبه الأصداف السوداء.

أتت له امرأة ذات شعر طويل بإناء من الطعام، ثم تعثرت قدم زوجتي ببعض الحجارة ليلتفت إلينا، ثم اتجه ناحيتنا مهرولًا، هرولنا تجاه البئر التي كانت يغطيها وثن ياسوئيل لنلقى بأنفسنا داخلها، فارت مياه البئر لتُلقي بنا عبر فتحة في بطن الوثن إلى باحة المعبد، والتي كانت تمتلئ بالكهنة، لتقف زوجتي رافعة يدها جاهرة بصوتها قائلة: نحن قديسان من أبناء ياسوئيل، لا تنظروا إلينا وإلا أحرقناكم ليدير الكهنة ظهورهم إلينا، ويضع البعض يديه على عينيه، ثم أردفت قائلة: افتحوا الأبواب سنغادر الآن ونعود مساءً، كونوا في انتظارنا.

ثم اتجهنا مسرعين إلى بوابة المعبد خارجين، وما إن أغلقت البوابة حتى هرولنا مبتعدين، ثم تفاجأنا بأننا عام 1980، وقد تغيرت الأحوال، وأصبحت نيبو ولاية تابعة للسيادة الفرنسية، وتم إلغاء الملكية وأصبحت جمهورية، يرأسها نائل بن مازر بن صلهوب زعيم الكهنة، بحثنا عن عمل لنستطيع توفير قوت يومنا ومكان لنسكن به، ثم بحثنا عن المكتبات التي تضم كتب التاريخ، وما إن أتممنا ثمنه حتى اشترينا هذا الكتاب، لنعلم ماذا حدث منذ غادرنا القلعة حتى تاريخه.

ثم أردف سالم يقص ما حدث حتى هذه اللحظة.
ما إن انتهى سالم من حديثه حتى نظر الحضور إلى بعضهم، متعجبين مما قال ليرد الوزير قائلًا: - قرأنا الكتاب وتعجبنا مما فيه، ما ذُكر بهذا الكتاب صحيح حتى أحداث عام 1960، حيث حاول الكهنة بمساعدة بعض الخونة إقصاء الملك عدنان بن الظافر، والاستيلاء على المملكة، ولكن تم إحباط محاولتهم والقبض على الرؤوس المدبرة للمؤامرة، وتقديمهم للمحاكمة واستتب الأمر بعد أسابيع قليلة، وعادت الأمور لنصابها .
ثم قام بتشغيل اللوح الذكي الموجود على الطاولة، ليتصفح بعض المواقع الإلكترونية، ثم أشار لسالم قائلًا:
- انظر إلى صفحات الجرائد عام 1960 ليقرأ سالم عناوينها وقد كُتب: إحباط محاولة لقلب نظام الحكم في البلاد، ثم عنوان آخر: القبض على نائل بن مازر وهانئ بن راؤول وقمر بن القابض وإحالتهم للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى، ثم عنوان آخر: إعفاء الوزير الأول من منصبه وتكليف السيد داوود الغريب بتشكيل وزارة جديدة.
نظر سالم للوزير قائلًا:
- مَن ملك نيبو الآن؟
ليرد الوزير:
- الملك سراج بن الأكرم بن عدنان بن الظافر.
- إذًا، كنت وزيرًا أول في عهد عدنان؟
- نعم، وحتى الآن.
- وما تفسير ما رأيته بعيني؟ وما هو مكتوب بهذا الكتاب؟
- هذا ما سيفسره لنا الدكتور عاطف.
وقف الدكتور عاطف قائلًا:
- سأحاول شرح الأمر بصورة مبسطة.
بدأ الحديث عن البوابات الزمنية منذ نهايات القرن التاسع عشر، هي تلك

البوابات التي يستطيع الشخص من خلالها الانتقال من مكان لآخر، ومن زمان لآخر في وقت قصير جدًا، وهو ما يعرف بنظرية «الزمكان»، الأقرب للصحة أنها بوابة بين عالم الإنس وعالم الجن بين العالم الأرضي وباقي العوالم الأخرى، وقد أشار القرآن الكريم إلى تلك البوابات في قوله تعالى في سورة النمل:

{ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ. قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} (٣٩- ٤٠).

كما يوجد بعض النقوش الفرعونية منذ آلاف السنين لا تفسير لها إلا احتمالية اكتشافهم هذا الأمر، وتحدثوا في بعض برديا‌تهم عن وجود بوابات تنقل الناس إلى بوابات كواكب بعيدة وعوالم مختلفة خارج الأرض، وجاء في إحداها أن كبير كهنة الإله رع كان يصعد ويهبط إلى السماء، من خلال دائرة معدنية أطلق عليها بوابة النجوم، كما تم الكشف عن نصوص هيروغليفية تتحدث عن مسارب فضائية أسموها بوابات النجوم.

ثم أردف قائلًا:

- هناك مجموعة من البشر يحاولون السيطرة على هذه البوابات، وقد سيطروا على معظمها بالفعل في أماكن متفرقة من العالم، بعلاقاتهم مع الشياطين والجن، كما تسرب عن منطقة رمزوا لها بالمنطقة 51، وبوابة أخرى باليمن، كما يوجد بعض البوابات المائية كبوابة بئر ياسوئيل، التي خرج منها الملك سالم، وكاد هؤلاء يسيطرون على بوابة البئر قديمًا، لولا رفض الملك سالم بن العابد العرض الذي قدمه له مستر جاك روتيلد، ليقاطعه سالم قائلًا:

كان روتيلد من عبدة ياسوئيل، رأيته يركع له وينحني أمامه برفقة مارز بن صلهوب.

ليتابع الدكتور عاطف:
بالطبع سيدي جميعهم من عبدة ياسوئيل، ذلك الكائن الذي رأيته بالكهف، وهو بشر من أبناء آدم أصابته لعنة ما ليصاب بمرض جلدي نادر، وهو يسيطر على معظم الفجوات الزمكانية في العالم ويستخدمها ليوهم الناس بقدرته على صنع المعجزات، وإحياء الموتى والسيطرة على ما تخفيه الأرض من كنوز ليملك العالم .
ثم أردف قائلًا:
- ثم حاولوا مرة أخرى بمحاولتهم إقصاء الملك سالم عام 1923، ثم بمحاولة إقصاء الملك عدنان عام 1960، فهؤلاء البشر لديهم القدرة على إدراك عوالم أخرى تختلف تمامًا عن عالمنا المألوف، كما يوجد العديد من الأحداث عبر التاريخ تؤكد وجود تلك الفجوات، مثل ما حدث في البيرو، فهناك أماكن معينة بها تمكن الإنسان فيها من رؤية الجن حين دخولهم إلى عالمنا المادي، من خلال فجوة زمكانية، وقد توجد هذه الفجوة بمكان ما بشكل دائم، وهناك أماكن أخرى تتشكل مؤقتًا وفيها يختفى الأشخاص أو الأشياء في ظروف غامضة، ولا يبقى لهم أثر كاختفاء الملك المؤسس سالم بن العابد وزوجته الملكة ولاء عام 1923.
وفى الصين اختفى ثلاثة آلاف جندي خارج مدينة يانكين أثناء الحرب العالمية الثانية بعد دخولهم في كتلة ضبابية كبيرة، وفى روسيا اختفى مائة واثنا عشر جنديًا في نوفمبر 1945 بعد نزولهم في محطة نورسفيك، وفى عام 1965 عندما أرسلت حكومة البرازيل بعثة للبحث عن مستعمرة في غابات الأمازون تدعى هولر فيردا اختفت بأكملها، وكانت سببًا في فشل البرازيل في استيطان الأمازون، وفى عام 1976 دخلت طائرة يابانية في غيمة يفترض أن تخرج منها بعد وقت قصير، إلا أن كل شيء داخلها أصبح ساكنًا، وبدا وكأن الطائرة احتجزت داخل الغيمة للأبد، ولكن بعد ثلاث ساعات خرجت الطائرة فجأة، وعاد كل شيء لطبيعته حتى في نهاية الرحلة، وحين هبطت

بمطار سياتل اكتشف الركاب أنهم وصلوا متأخرين ثلاث ساعات، وغيرها الكثير والكثير من الأحداث، أما ما ذكر في هذا الكتاب وما رأيته في تلك الأزمنة المختلفة فلا تفسير له إلا أنه حدث في عالم موازٍ غير عالمنا.

ليتساءل الكولونيل علاء:

وهل من الممكن أن يؤثر في عالمنا؟

- بالطبع، كل شيء وارد.

نظر إليه الدكتور داوود قائلًا:

وما خطتك؟

نظر الدكتور عاطف لسالم قائلًا:

لا بد من إرسال شخص إلى الملك عدنان لكشف المؤامرة قبل إتمامها بفترة كافية، حتى يصبح ما حدث في عالمنا مطابقًا لما حدث في العالم الموازي.

ارتسمت على وجه سالم ابتسامة خفيفة ليرد قائلًا:

وبالطبع أنا من سيقوم بهذه المهمة، فلديّ جواز سفر دبلوماسي عبر الزمن.

ضحك الجميع ليرد الدكتور داوود متسائلًا:

ألا تشتاق لرؤية صديقك عدنان؟

ليقول سالم:

والله إني أشتاق لعدنان ومحمود وكارول وبنيامين ورشوان وكمال الدين وقاسم وعبد الله وسليمان وهاكوب، واشتاق لأبي وأمي، وأشتاق لمصر، واشتاق لزوجتي.

ليرد الوزير قائلًا:

غدًا صباحًا بمشيئة الله، ستلتقي الملك سراج بن الأكرم.

في صباح اليوم التالي انتفض سالم من نومه فزعًا من صوت الطائرات المحلقة في سماء القصر، والممتزج بأصوات صافرات الدراجات النارية ومحركات السيارات المرافقة لموكب الملك سراج بن الأكرم، اتجه سالم لنافذة غرفته ليرى توالى دخول السيارات مسرعة للممر الذي يتوسط

حديقة القصر، لينزل من إحداها الملك سراج الذي كان في استقباله الوزير الأعظم الدكتور داوود الغريب والدكتور عاطف بن شمس، والكولونيل علاء بن يامن، ثم اتجه بصحبتهم داخلًا إلى بوابة القصر ليقف سالم أمام باب غرفته، منتظرًا وصوله ليطرق الباب وما إن فتحه حتى رأى الملك واقفًا أمامه مبتسمًا، تعتلى وجهه نظرات الدهشة والتعجب.

مد سالم يده للملك مصافحًا، لينحني الملك مقبلًا يده، ليقول سالم وهو يسحب يده مسرعًا:

يجب أن أُقبِّل أنا يدك يا مولاي، فأنت سراج بن الأكرم بن عدنان بن الظافر.

رفع الملك رأسه قائلًا:

مولاي الملك المؤسس سالم بن العابد، تمنيت كثيرًا أن أراك، كم من الأوقات جلست متخيلًا أني أتحدث إليك، أقرأ كتب التاريخ فخرًا لأنك كنت صديقًا لجدي الملك عدنان، ثم اخترته لك وزيرًا، حقًا لا أصدق أنى أقف أمامك الآن، أحدثك وتحدثني.

نظر له سالم مبتسمًا دون رد.

ليقول الوزير داوود:

تفضل بالجلوس جلالة الملك.

دلف الملك إلى الغرفة ثم نظر لوزيره قائلًا:

أرجوا أن تتركونا بمفردنا، ليتجه الدكتور داوود خارجًا، وما إن جلسا حتى قال سالم:

تشبه عدنان كثيرًا، كان دائمًا بشوش الوجه خفيف الظل.

ليرد الملك:

لم أر جدي يا مولاي، فقد مات قبل ولادتي، وعلمت أنك ستعود إلى زمانه لتلقاه.

ليقول سالم:

يبدو أن قدري هو السفر عبر الزمن دومًا.
ليرد الملك قائلًا:
بل قدرك أن تظل حاميًا لهذه الجنة التي صنعتها بيديك.
ليرد سالم:
يبدو أن صناعة الجنة أكثر سهولةً ويسرًا من المحافظة عليها، هل تعلم أن جدك عدنان هو من أطلق اسم نيبو على هذه الجزيرة؟
- نعم، أخبرني الدكتور داوود، ولكن لمَ اختار هذا الاسم؟
- عندما اقتربت السفينة من أرض الجزيرة ورأينا الجبال الخضراء التي تنهمر من الشلالات لتلتقى على أرض الجزيرة كنهر مجدول تصطف الأزهار على جانبيه، سمعته يقول نيبو، لم أفهم ما قاله، وعندما سألته أخبرني أنها تعنى الجنة باللغة البوسنية، كان عدنان ينتمي لإمبراطورية البوسنة والهرسك، هل تعلم هذا؟
- نعم، أخبرني أبي.. عندما علمت أنك عائد إلى زمانه فحرصت على أن أرسل له رسالة من خلال جلالتك.
- تفضل.
- أبلغه أن حفيدك سيظل سائرًا على دربك ودرب رفيقك الملك المؤسس، وسيربى أبناءه وأحفاده على هذا، وأبلغه أن مملكة نيبو ستظل جنة الله على هذه الأرض، بمشيئة الله، وأبلغه أني كم تمنيت أن ألقاه، إلا أن لقائي برفيق دربك الملك المؤسس سالم بن العابد عوضني عن هذا بعض الشيء.
- كن مطمئنًا، سأبلغه برسالتك إن نجحت في لقائه بمشيئة الله وسأبلغه إن أراد رؤيتك فليُلقي بنفسه في قاع البئر.
علت ضحكاتهم، واستمر حديثهم لبعض الوقت، حتى خرج الملك من غرفة سالم ليصافحه متجهًا لقصره.
في صباح اليوم التالي، اجتمع الدكتور داوود بسالم والدكتور عاطف والسيد علاء بمكتبه لوضع اللمسات الأخيرة لرحلة سالم بن العابد إلى الماضي، للقاء

الملك عدنان، ليبدأ الدكتور عاطف الحديث قائلًا:
- هناك أمران يجب أن يعلمهما الجميع، أولهما أن موعد إلقاء جلالة الملك بنفسه في البئر سيكون بعد شهرين وأربعة أيام وسبع ساعات وثلاث ثوانٍ، لضمان وصوله في بدايات عام 1959 أي قبل محاولة العصيان بعام على الأقل، والأمر الثاني هو أن جلالته لن يستطيع أن يلقي بنفسه في البئر مرة أخرى، فسيكون هذا انتحارًا، لأن جسده لن يتحمل السفر عبر الزمن مرة أخرى.
ليرد سالم قائلًا:
- كنت أنوي البقاء برفقة عدنان على أي حال، فأنا حقًا كرهت هذه البئر.
ثم أردف قائلًا:
أريد قضاء هذين الشهرين في زيارة معالم المملكة ومدنها وزيارة القلعة والمصانع والمدارس والمشافي والجامعات.
ليرد الوزير:
ابتداءً من الآن ستكون سيارة بسائقها بطاقم حراستها تحت تصرف جلالتك.
ثم قال الكولونيل علاء:
إن صور جلالة الملك موجودة في الكثير من منشآت المملكة، لذا وجب علينا إجراء بعض التغييرات في ملامحه، أستأذن جلالته أن نزيل اللحية والشارب، ونغير قصة الشعر وسنعد له بعض الملابس الحديثة.
ليرد سالم:
- لا مانع بالطبع.
بعد نحو الساعة حضر للقصر أحد الحجامين، وأحد خبراء الماكياج، ليرتدى سالم أحدث صيحات الملابس المواكبة لهذا الزمان وقد تغيرت ملامحه.
قبل غروب الشمس بوقت قصير، طُرق باب الغرفة ليفتح سالم، فإذ بالدكتور داوود الغريب قائلًا: الآنسة ولاء بنت الحامد تريد لقاءك يا

مولاي.
وقف سالم وقد تجمدت ملامحه ليتابع الوزير حديثه قائلًا:
- لا يستطيع أحد أن يمنع القدر.
ليرد سالم:
- وكيف عرفت أن ولاء هي زوجتي؟
- ستعرف كل شيء في وقته، ولاحظ أنها لا تعرف أنك الملك سالم، أنت كامل بن عبد الله، الفتى المشرد الذي ألقت به البئر مسافرًا عبر الزمن.
دلفت ولاء إلى الغرفة بعد أن خرج الوزير داوود، ليقف سالم محدقًا النظر في عينيها متفقدًا ملامح وجهها، مدّت يدها مصافحةً ليطبق سالم قبضته على يدها وكأنه يحاول الاحتفاظ بها إلى الأبد، سحبت يدها وقد بدا على ملامحها بعض الخوف والارتباك قائلة:
أنا ولاء بنت الحامد تلميذة الدكتور عاطف بن شمس، وباحثة في العلوم الفلكية والجيوفيزيقية وعلم الزمكان بجامعة الملك سالم بن العابد، وددت أن أطرح عليك بعض الأسئلة إن أذنت لي.
جلس مبتسمًا ثم قال:
- تفضلي يا ولاء.
أخرجت هاتفها الجوال وشغلّت وضع التسجيل متسائلة:
الاسم؟
- كامل بن عبد الله
- متى ولدت يا كامل؟
- ضحك قائلًا: هل ستصدقينني؟
- وهل ستكذب عليّ؟
- بالطبع لا، ولدت في مارس 1890م.
نظرت إليه بذهول قائلة:
1890

ليرد مبتسمًا:
اتفقنا أنى لن أكذب.
- ألقيت بنفسك في البئر عام 1890 لتخرج عام 2010؟
علا صوت ضحكاته قائلًا:
نعم، عندما شعرت أمي بآلام الولادة اتجهت للبئر، وجلست فوقها، فخرجت أنا من رحمها إلى قاع البئر مباشرةً، لأخرج منها في هذا الزمان، وعمري أربعة وثلاثون عامًا.
نظرت إليه نظرة بلهاء، ثم تشابكت أصابعها قائلة:
أعتذر يا كامل، فتاريخ ميلادك فاجأني.
- لا داعي للاعتذار، أكملى يا ولاء.
- متى سقطت في البئر؟
ليرد مبتسمًا:
- كل هذه الأسئلة، يستطيع الدكتور عاطف أن يجيبك عنها، أنتِ لم تأت للبحث والدراسة، بل أتيتِ للتعرف على ذاك الشاب المشرد الذي قذفت به البئر في زمانكم.
ارتسمت على وجهها ملامح الارتباك والغضب، ثم نهضت قائلة:
- يبدو أنك سئمت من حديثي، ائذن لي بالانصراف.
لينهض قائلًا:
لا والله لا أقصد ذلك أبدًا، بالله لم أذق طعم السعادة في حياتي إلا بعدما تحدثتُ إليكِ، ولكن رغبت في أن أغير موضوع اللقاء ليصبح أكثر شمولًا.
- بمعنى؟!
- ليس لي أصدقاء في هذا الزمان، كم عمرك؟
- 24 عامًا.
- هل يمكن أن نصبح أصدقاء؟ نتحدث في أمور العلم والفلك والجن والعفاريت ونتحدث أيضًا فيما يسعدنا ويبكينا وما نذكر من الماضي وما

نحلم به للمستقبل؟
صمتت برهة، ثم تبسمت ضاحكة ومدت يدها تصافحه قائلة:
- اتفقنا.
أطبق قبضته على يدها مصافحًا للمرة الثانية، ثم ترك يدها مسرعًا حتى لا تشعر بخوف أو رهبة، ثم أردف قائلًا:
- سأبدأ غدًا في العاشرة صباحًا جولة بمعالم المملكة، ما رأيك في أن تكوني مرشدتي في هذه الرحلة؟
- بالطبع موافقة، ثم أدارت وجهها مغادرة ليجلس سالم باسمًا، حين تذكر خروجها من وثن ياسوئيل وهي تقفز محاولة ضرب الكهنة بكفيها الصغيرتين، ثم علا صوت ضحكاته حين تذكر قولها: لا أريدك أن تتخيل أنك ستأمرهم بأخذي إلى الحرملك، ثم آتى إليك ليلًا لأرقص برفقة الحريم أمامك، وأنت تجلس على عرشك في قاعة كبيرة تتناول الفاكهة.
بحلول المساء جلس الدكتور عاطف برفقة سالم بأحد المكاتب بجناح الضيافة، ليبدأ الحديث متسائلًا:
- وجدت بعض الأوراق التي تحوي جداول وأرقامًا وبعض المصفوفات والمعادلات، كانت بالحقيبة مع الكتاب، هل جلالتكم من قام بكتابتها؟
- لا، بل زوجتي من قامت بكتابتها ولا أعلم لها تفسيرًا.
- العجيب يا مولاي أن هذه الجداول هي محاولة لتحديد موعد زمني للمرور عبر فجوة زمكانية، وهي دراسة حديثة جدًا قمت بالإشراف عليها بنفسي.
ليرد سالم:
- بالتأكيد يعلمها زملاؤك وبعض تلاميذك.
أومأ الدكتور عاطف برأسه إيجابًا، ثم أردف قائلًا:
كما أن الخط الذي كُتبت به يا مولاي يشبه خط..
ليقاطعه سالم قائلًا:

يشبه خط ولاء بنت الحامد.
نظر له عاطف بملامح الدهشة والذهول قائلًا:
هل تقصد يا مولاي أن ولاء هي...؟
- نعم، ستلقي ولاء بنفسها في البئر، وسأراها لأول مرة في باحة معبد ياسوئيل، بعد أن أخطأت حساباتها الزمنية، وستصبح أول ملكة لمملكة نيبو، وستصحبني للبئر هربًا من حصار الكهنة وأتباعهم للقلعة لتلقى بنا مياه البئر في نفس الباحة عام 1980.
ثم أجهش بالبكاء وقد تقطّع صوته قائلًا:

ثم لا تستطع روحها الرقيقة وجسدها الضعيف تحمل ما عانته من شقاء فتمرض وتموت بين يدي، وقد عجزت عن توفير تكاليف علاجها لألقى بنفسي في البئر لأخرج عام 1960 ثم عام 2010 لتراني للمرة الأولى بهذا القصر منذ ساعات قليلة.
وقف دكتور عاطف واضعًا يديه على رأسه، وقد أغرورقت عيناه بالدموع، قائلًا:

يا الله.. يا الله، كيف تتحمل؟ كيف تتحمل؟!
وقف سالم بينما يمسح دموعه بيديه، ثم ربت على كتفه قائلًا:

دكتور عاطف.. أستمد قوتي من قوتكم فلا تضعفوا حتى لا أصب بالانهيار.
أمسك عاطف بيده فقبلّها قائلًا:

لن تستطع أي كلمات وصف ما أشعر به من فخر، لأني أقف أمام جلالتكم أحدثك وتحدثني، كنت أتمنى أن يأتي يومًا أقص على أبنائي وأحفادي ما يدور الآن بيننا ولكن.. أولًا، لا يمكنني الحديث فسيبقى الأمر طي الكتمان للأبد.

وثانيًا: حتى إن حدثتهم، فلن يصدقني أحد.
وصلت ولاء للقصر صباح اليوم التالي لترافق سالم في جولته بالمملكة والتي استمرت بضعة أيام متتالية، كان يتعمَّد استفزازها في بعض الأوقات ليرى ملامح الغضب على وجهها، كما كان يبكيها في أوقات أخرى وكثيرًا ما كان يضحكها لتضيء الدنيا بشمس ضحكة وجهها البريء، كان عاشقًا لتلك الملامح في كل أحوالها، وكان يرغب في إشباع عينيه بكل ما عشقه فيها من تفاصيل قبل الفراق الأبدي المحتوم، مال له قلبها، فمالت له روحها وكانت تعلم أنه سيفارق حتمًا في مهمة ما لا تعلم وجهتها، ولا الغرض منها وتوسلت له في كثير من الأوقات أن ترافقه في مهمته، إلا أنه كان بالطبع يرفض طلبها فلا يستطيع لبشر أن يغير ما كتبته الأقدار.
جلس الدكتور داوود الغريب بمكتبه برفقة سالم ودكتور عاطف والكولونيل علاء، قبل يوم من المهمة، لوضع اللمسات الأخيرة ليضع سالم بحقيبته الخرائط التفصيلية لأماكن تمركز الكهنة ومخازن سلاحهم، وكشف بأسماء أعوانهم من الخونة والتي كان قد أعدها الكولونيل علاء طبقًا للملفات الأمنية التي تخص تلك الفترة الزمنية، كما وضع كتابه الذي تحتوي كلماته على ما لا يرغبون وقوعه من أحداث ليلقي بنفسه في قاع البئر في الموعد المحدد باليوم والساعة والثانية.

قاعة الحكم - مملكة نيبو - 1959م

فتح الملك عدنان بن الظافر باب غرفة نومه ليلًا، وما إن أغلقه ليدير وجهه لفراشه حتى لاحظ أحدهم جالسًا على كرسيه ينظر له مبتسمًا.
انتفض الملك وارتعدت فرائصه، ثم مد يده إلى جيبه محاولًا إخراج سلاحه، لينهض سالم ممسكًا بيده ناظرًا إلى عينيه قائلًا:

لا ينبغي لملك أن ترتعد فرائصه كما حدث الآن، أصبحت عجوزًا يا عدنان وازداد وزنك وتساقط شعرك.
نظر له بدهشة وارتسمت على وجهه ملامح الذهول قائلًا:

هل هذا حقيقة أم خيال؟
- أأنت سالم؟
- نعم يا عدنان أنا سالم.
- احتضنه الملك بقوة وفاضت عيناه دمعًا ثم سأله:

ولكن كيف؟ لا زلت في ريعان شبابك وكأنك تركتنا بالأمس.
- اجلس يا عدنان، وسأقص لك كل شيء.

قص سالم ما حدث منذ غادر القصر وحتى اللحظة، وتفاجأ عدنان بهذا الباب السري الذي يختفي خلف الحائط الخشبي المقابل لفراشه، والذي استخدمه سالم للوصول لغرفة نومه عبر السرداب، ثم أخرج الكتاب من حقيبته ليطلع عدنان على ما به من أحداث، كما أوضح له من خلال الخرائط أماكن تمركز الكهنة وتجمعاتهم، وأماكن تدريبهم التي استخدموها بعد أن استمالوا عقول بعض الشباب عن طريق دينهم الزائف

لاستعدائهم ضد وطنهم.
تساءل سالم بعد أن أنهى حديثه:

رأيتك والقائد محمود تتجهان إلى أطراف نيبو وقت الأحداث، كيف خرجتما وقد أمرت بتحديد إقامتكما؟
ليجيبه عدنان متعجبًا:

أنت من أفرجت عنا.
- لم يحدث.
- كيف وقد أخبرني ضابط الحراسة بأن إحدى خادمات القصر أتته بثلاثة مراسيم، أحدها قرار بالإفراج عنى، والآخر بإقالة عبيد بن الحارس من منصب الوزير الأول، والثالث بإعادة تكليفي بالمنصب، وذهبت نفس الخادمة لمنزل القائد محمود رحمه الله.
- مات محمود؟
- منذ أعوام، لم يبق من مجموعة العشرة إلا كارول، وهو مريض طريح فراشه وسليمان وهو الآن وزير للمالية.
شرد سالم للحظات ثم ابتسم قائلًا:

ولاء هي من كتبت المراسيم دون علمي، كانت تهوى قراءة كتب التاريخ.
نهض عدنان قائلًا:

آن الأوان لأن تعود إلى عرشك، وتقود معركتك ضد الخونة.
- هي معركتك أنت يا عدنان، أنت واجهت في الماضي وأنا هربت وستواجه الآن وأنا بجانبك ثم هل فكرت كيف ستواجه العالم والشعب ووكالات الأنباء؟ ثم ضحك قائلًا:

هل ستخبرهم بأن الملك سالم اختفى منذ ما يزيد على الثلاثين عامًا، وهو في الثالثة والثلاثين من عمره ليعود وهو في الرابعة والثلاثين.
ليرد عدنان:

سأستخرج لك بطاقة هوية باسم جديد، وسأصدر قرارًا بتكليفك بمهام الوزير الأول للمملكة.

دلف الملك لغرفة سالم في صباح اليوم التالي، ووضع في يده قرار تكليفه بمهام الوزير الأول وبطاقة هويته الجديدة لترتسم قسمات وجهه بملامح الدهشة والتعجب عندما قرأ اسمه الجديد الذي أصبح.. داوود الغريب..

ليظل مجاورًا لرفيقه، حتى تم القضاء على الخونة جميعهم، وتطهير المملكة مما تبقى من الكهنة وأتباعهم، ثم مات الملك عدنان بن الظافر عام 1962 وقد أوصى قبيل وفاته بأن يظل داوود الغريب في منصب الوزير الأعظم للملكة مدى حياته، وكانت وصايا الملك نافذة بقوة القانون ليبدأ سالم دورة زمانه الثانية رفقة الملك الأكرم بن عدنان ثم سراج بن الأكرم، حتى بلغ عامه الخامس والثمانين ليجلس بحديقة قصره يقلب بأنامله لوحًا ذكيًا متابعًا الأخبار عبر مواقع بعض وكالات الأنباء، بينما ينظر بين الحين والآخر لهاتفه الجوال مترقبًا اتصالًا هاتفيًا من دكتور عاطف بن شمس ليخبره بأن مياه البئر قد ألقت بفتى مشرد في العقد الثالث من عمره.

ثم حاولت ولاء إجراء بعض حساباتها لتلقى بنفسها بالبئر محاولة الوصول لحبيبها بعد عام من رحلته الزمنية لتخطئ الحسابات، وتخرج بباحة معبد ياسوئيل عام 1923.

صعد داوود الغريب سلم قصره ليمسك بحقيبته التي كان قد أعدها بغرفة نومه متجهًا إلى ميناء هيكاريا، ليصعد على متن أحد اليخوت الملكية

متجهًا لوطنه مصر، عسى أن يجد من بقي مِن عائلته ليكمل معهم ما بقي من عمره، بعد أن أتم مهمته بالحفاظ على جنته التي صنعها ورفاقه بأيديهم عبر رحلة بحرية كالتي أتت به إلى نيبو منذ عقود، كسجين مرحل من إسطنبول إلى سجن الجزيرة.

بعد أيام في عرض البحر تفاجأ وطاقم اليخت بغمام كثيف رمادي اللون يحجب الرؤية ينتج عن احتكاكه بعض الشرر، لتشتد الريح وتهطل الأمطار ويفقد قبطان اليخت سيطرته على دفة القيادة ويدور اليخت وكأنه في دوامة ليسقط سالم فاقدًا الوعي.

القاهرة - مصر - 2011 م

في أحد الممرات بأحد مستشفيات الأمراض النفسية والعصبية بالقاهرة يتقدم دكتور وائل بخطى متوازنة فاتحًا باب إحدى الغرف، جالسًا على الكرسي المجاور للفراش الذي يرقد به أحد المرضى، مغطيًا وجهه ليبتسم دكتور وائل قائلًا:
وبعدين معاك يا عم سالم، مش راضى تاخد الدوا ليه؟
أزاح الغطاء عن رأسه قائلًا:

لا تقل عم سالم، أنا الملك سالم بن العابد مؤسس مملكة نيبو.
ليرد الطبيب ساخرًا:

ماشى يا جلالتك، أنت عارف دكتور طارق لو جه هيقول جلسات كهربا وأنت راجل كبير مش حمل فولت.
سادت وجهه ملامح الخوف قائلًا:

لا.. لا بلاش كهربا، هات الدوا.

أخذ الطبيب بعض أقراص الدواء الموجودة على الكومود المجاور للفراش، ليمسكها سالم، ثم مد يده المرتعشة ممسكًا بكوب من الماء ليتناول دواءه، بينما تتساقط قطرات المياه على ملابسه.

ما إن انصرف الطبيب حتى نهض متجهًا بخطوات متباطئة، فاتحًا خزانة ملابسه، ممسكًا بكتاب ليحتضنه بين أضلعه متجهًا للنافذة المطلة على حديقة المشفى، ليفتح كتابه يتلمس بأنامله آثار قطرات جافة على

صفحاته الصفراء البالية، تحتضن قطرات دموعه التي بدأت بالتساقط بين كلماته.

ثم نظر إلى نافذته ليرى عجوزًا جالسًا على الهواء، ناظرًا إلى الأرض، ثم رفع رأسه ناظرًا في عينه لينهض واقفًا ليقول:

يجب أن أقف لمن سيملك الدنيا ولن تملكه الدنيا، تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن، وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم، تضربكم الأمواج حتى يوضع على رأسك التاج، يدور بك الزمان من الآن إلى الآن، ثم يملأ قلبك الحب فيغلِب العقل القلب، تلتقيها غريبة، وتعشقها غريبة، ثم.. تدفنها غريبة..

تذكر سالم تلك الكلمات التي نقشها على أحد الأحجار، ثم وضعه على قبر زوجته.

التقيتك غريبة وعشقتك غريبة ثم دفنتك غريبة... ليسقط سالم على الأرض محتضنًا كتابه مغمض العينين، ليُفتح باب الغرفة كاشفًا عن فتاة تبدو في العقد الثاني من عمرها، بيضاء البشرة، ذات شعر أسود يصل طوله إلى شحمتى أذنيها، اقتربت منه بخطى متباطئة، ثم جثت على ركبتيها لتمسح بكفها الصغير على رأسه ليفتح عينيه قائلًا:

ولاء.. اشتقت إليكِ حبيبتي.

نظرت إلى عينيه بابتسامتها الرقيقة قائلة:

انهض يا سالم اشتقت إليك كثيرًا.

ابتسم لها قائلًا:

إلى أين سنذهب؟

لترد قائلة.. نيبو..

تمت بحمد الله

نلتقي بمشيئة الله مع... (عودة ياسوئيل)

المؤلف

هشام البراوي

إيميل: mesaak10@gmail.com
الواتساب: 01143487669
فيسبوك: mesaak0